محمد علي يوسف

مصرع الدارونية

تقديم

الدكتور محمد علي البار

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم

الناطسي المرموق البارع والبحاثة الاسلامي الكبير

الدكتور محمد علي البار

ليس من المستغرب أن يهتم الانسان بقصة خلقه ومبدأ نشوئه، فتلك اهتمامات تفرض نفسها على الطفل القاصر كما تفرض نفسها على الشخص البالغ... وتفرض نفسها على الانسان في الغابة كما تفرض نفسها على الانسان في قمة الحضارة... وتاريخ الانسانية شاهد بذلك فقصة خلق الانسان موجودة لدى الامم السابقة على تصوراتها المختلفة وخيالاتها المبدعة...

وأول ذكر مفصل مدون هو ما نراه في سفر التكوين من التوارة المحرفة التي يؤمن بها اليهود والنصارى والتي جمعت قول الحق تعالى الى اضافات يهود وتحريفاتهم وتخرصاتهم...

أما القول الفصل في هذا الموضوع فهو ما ورد في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... ومع هذا فقد ترك القرآن الكريم للجهد البشري نصيباً للوصول الى هذه المعرفة فقال تعالى: (قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق...).

وفي القرآن الكريم اشارات الى قصة خلق آدم ترد في آيات متفرقات فتصفه تارة بأنه من طين لازب وتارة من صلصال كالفخار وتارة من حما مسنون... وكلها تشير الى مراحل يمر بها هذا الطين قبل أن يكرم

بالنفخ من الرب الكريم.

(ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون. والجان خلقناه من قبل من نار السموم اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حما مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون من الساجدين. قال يا ابليس ما لك الا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مسنون).

وقد ورد عن ابن عباس ومجاهد والضحاك أن الحما هو الطين وأن المسنون هو المتغير المنتن الذي قد أسن... وهذا المعنى يتفق مع ما يقوله العلماء اليوم بشأن بداية الخلق حيث يقولون أن نشأة الحياة بدأت من غازات المستنقعات ومن الطين الآسن اللازب... تتجمع عناصر غاز الميثان مع غاز النشادر (الامونيا) مع غاز كبريتور الهيدروجين (H^{25}) لتبدأ منها رحلة الحياة. ويتفق أصحاب العلم الحديث كذلك مع ما يقوله أهل التفسير في أن الانسان آخر المخلوقات ظهورا على سطح الأرض... قال الحسن البصري كما ينقله عنه الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً): -

﴿خلق الله تعالى كل الاشياء ما يرى وما لا يرى من دواب البحر في الايام الستة التي خلق الله فيها السموات والارض. وآخر ما خلق الله آدم عليه السلام﴾.

أما ابن جرير الطبري فيقول في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا﴾. هو آدم عليه السلام عن معمر عن قتاده قال: كان آدم ﷺ آخر ما خلق من الخلق) واختلف أهل التأويل في الحين وأغلبهم على أنه لا حد له... وكما يقول الاستاذ العقاد (واذا قيل أن بث الحياة في طينة آدم تم في يوم واحد

فان اليوم الواحد مجهول المقدار في علم الله وأن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) وقد يكون اليوم خمسين الف سنة كما جاء في قوله تعالى ﴿تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة﴾. وجاءت مجموعة من علماء المسلمين فوصفوا مراحل متعددة لخلق الانسان ونحن سننقل طرفا يسيرا مما قالوا لتتضح الرؤية للقارىء في هذا الموضوع الشائك...

قال العلامة الموسوعي أحمد بن سهل البلخي (٢٣٥هـ) في كتاب البدء والتاريخ بعد أن تحدث عن كيفية خلق الحيوانات «وآدم حيوان» فعند بعضهم أن آدم تولد من رطوبة الارض كما يتولد سائر الهوام وكان جلده كجلد السمك وعند آخرين انه (أي آدم) ظهر شيئاً بعد شيء ثم تركب على مرور الازمان وصار انساناً).

أما ابن خلدون فيقول في المقدمة في باب تفسير حقيقة النبوة: (ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له. وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق كل منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده... واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والرؤية ترتفع اليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الرؤية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق الانسان بعده وهذا غاية شهودنا).

وبمثل ما قال ابن خلدون قال ابن مسكويه (من علماء القرن الرابع الهجري) وأبو النصر الفارابي المتوفي (سنة ٣٣٩ هـ) ومحمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤... والقزويني صاحب عجائب المخلوقات واخوان

الصفا... وقد تقدم ذكر ما قاله الامام ابن جرير الطبري والفخر الرازي وهما من أئمه أهل التفسير. فقضية خلق الانسان عبر مراحل قضية قديمة قال بها كثير من علماء المسلمين ولم ينكر عليهم ذلك ولا وسموا بالكفر من أجله... بل أن الذين قالوا بهذه النظرية من المسلمين لم يقولوها الا ليثبتوا النبوة وكيف ان الانسان في لمحة من اللمحات يصير من جنس الملائكة ليستطيع أن يتلقى الوحي... وكما يقول ابن خلدون (فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات. وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد. ويكون لها اتصال بالأفق الأعلى الذي بعدها، شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه).

وهكذا تكون نظرية التطور عند علماء المسلمين الاقدمين دلالة لاثبات الوحي والنبوة فكيف يا ترى استخدمت نظرية التطور في العصر الحديث؟

لقد لُوِيَ عنانُها وغُيِّر منهجُها وحُوِّل طريقها لتخدم الالحاد وقد استخدمها يهود أبرع استخدام في تحقيق مخططاتهم الجهنمية لافساد الاخلاق وزلزلة العقائد كما يقول البروتوكول الثاني من بروتوكولات حكماء صهيون: (لاحظوا أن نجاح داروِن وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل وان الاثر الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الاممي سيكون واضحاً على التأكيد) وفي موضع آخر تقول البروتوكولات: (أن داروِن ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر أراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين).

وقد استخدم اليهود ماركس وداروِن وفرويد ودوركايم **بكل ذكاء** ومهارة لتحطيم العقائد والاخلاق لكافة الامم **حتى يسهل عليهم تحقيق** حلمهم الرهيب في ايجاد الدولة اليهودية **التي تحكم العالم...والتي بشرت**

بها توراتهم المحرفة وتلمودهم الملوث بالاحقاد اليهودية ضد الانسانية جمعاء.

ذلك أن يهود يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن مسيحهم (الدجال) سيأتي وسيحكمون به العالم ولذا عندما جاء عيسى ابن مريم عليه السلام وأخبرهم بأنه المسيح سخروا منه ووضعوا الشوك على رأسه على هيئة تاج وقلدوه سيفا من خشب وقالوا له أين الدولة التي ستقيمها أيها المسيح الكاذب؟ ووصموه بكل نقيصة وافتروا على أمه الطاهرة العذراء مريم واتهموها بالزنا مع يوسف النجار. أفلا يتورع يهود بعد ذلك من محاولة تلويث البشرية وتحطيم عقائدها ومثلها حتى يتسنى لهم أن يصلوا الى هدفهم المنشود وهو الحكومة اليهودية التي تسيطر على العالم أجمع؟

لذا كان التصدي لنظرية دارون من منطلقها الالحادي هدفاً من أهداف خيرة علماء الاسلام... ولم أقرأ في هذا الباب خيراً من كتاب مصرع الدارونيه للاستاذ محمد علي يوسف الذي أتشرف بالتقديم له على كثرة ما قرأت في نظرية دارون.

ولقد حرص الكاتب القدير الاستاذ محمد علي يوسف على نقد النظرية نقداً علمياً وان احتدّت عبارته في بعض الاحيان الا أن ذلك لم يخرجه عن دائرة النقد العلمي الهادف مستشهداً في كل ما يقول بالجهابذة من العلماء في هذا الميدان... ولا شك أن نظرية دارون قد تحولت من مجالها العلمي الخاضع للبحث والتحقيق الى مجال الاعتقاد الاعمى الذي لا يخضع لصوت الحق ولا يستمع لنداء العلم... ولذا نرى البروفسور سكوت يقول: (أن نظرية النشوء جاءت لتبقى ولا يمكن أن نتخلى عنها حتى ولو أصبحت مجرد عمل من أعمال الاعتقاد).

ويقول البروفسور دانسون (بالرغم من التحدي الرهيب الذي يجابه النظرية في السجلات الصخرية التي نعتمد عليها وبالرغم من الصعوبات

الكأداء التي لا حصر لها والتي يقابلها الباحث بل بالرغم من أنه لا توجد أي نظرية معقولة يمكن الاعتماد عليها في القول بالتطور، بالرغم من كل ذلك يظل التطور حقيقة لا تقبل الجدل).

نعم هكذا... تعصب أعمى مقيت لنظرية التطور ولو كانت غير معقولة ولا تستند على أساس علمي... بل أن من ينتقد هذه النظرية في الدوائر العلمية يجد حرباً شعواء من أنصارها...

وكما ينقل لنا الاستاذ المؤلف نقلا عن الدكتور دوجلاس ديور الاضطهاد الذي يعانيه العلماء الذين لا يؤمنون بهذه النظرية التي تفتقد الى الادلة والبراهين العلمية فيقول (أن الذين لا يؤمنون بنظرية التطور يعتبرون غير أهل لأي منصب علمي فترفض الجرائد والمجلات مقالاتهم وتشجب الجمعيات العلمية مبتكراتهم وتمتنع دور النشر عن نشر مؤلفاتهم...حقاً لقد كممت أفواه المستقلين). ولا نريد الاستطراد فالكتاب مليء بمثل هذه الشواهد القوية التي توضح مدى الارهاب الفكري واحياناً الجسدي الذي يواجهه العلماء الذين يتحدون نظرية التطور...

والكتاب حقاً اضافة قيمة للمكتبة العربية وهو قمين بذلك فقد طرق الكاتب القدير موضوعه بمنهجية علمية هو جدير بها... واستشهد بمراجعه الانجليزية الكثيرة التي ساعدته مقدرته اللغوية التي اشتهر بها مذ كان طالباً في كلية عردون بالسودان وبالمدارس العليا بعدها ثم عندما وضع بحثه بعنوان (حتى بين النحو وفلسفته) وهو طالب في كلية دار العلوم بالقاهرة - أقول ساعدته مقدرته اللغوية الفذه في اللغتين العربية والانجليزية على التوسع في قراءة المراجع العلمية المشهورة ثم نقلها بعبارة جزلة وبيان قوى الى اللغه العربية... كما أن ثقافته الواسعة ومعرفته للعلوم الحديثة وخبرته في مجال التربية جعلت لبحثه تلك الموضوعيه والمنهجية التي يتميز بها...

ولهذا فكتاب الاستاذ القدير محمد علي يوسف جدير بما سيستقبل به ان شاء الله من اهتمام وحفاوه حيث ناقش الكاتب القدير نظرية النشوء والارتقاء بكل موضوعية في خمسة فصول كاملة في الباب الثاني من الكتاب بعد أن مهد لذلك في الباب الاول، وفي الباب الثالث ناقش المؤلف قضايا الطبيعة والمصادفة التي أصبحت وثناً يعبد من دون الله وفي الباب الرابع تعرض المؤلف الى العوامل التي ساعدت النظرية على التفسير المادي وتعرض في ذلك الى عامل الشر وما وصل اليه الدين المسيحي من خرافات تجعل الايمان بها عسيراً على ذوي العقول النيرة وتؤدي حتماً الى الخروج من قبضة الكنيسة...

وفي البابين السادس والسابع ناقش البديل لنظرية وموقف الاديان من هذه النظرية... وانتهى الى النهاية الصحيحة التي انتهى اليها من قبل الاستاذ العقاد في كتابه (الفلسفة القرآنية) وهو أن نظرية التطور في حد ذاتها لا تعارض الايمان بالله.

حتى أن دالاس زميل دارون الذي تتجاهله أجهزة الاعلام اليهودية يقول: (ان ما نتطلبه اطلاقاً ولا مناص من الاستدلال عليه هو ذلك العقل الذي هو أسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتفرقة والتي نراها حولنا...وأنه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة في الانواع الحية وعلى ارشادها وتدبيرها فحسب، بل أنه لهو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل... وينبوع لما هو الاساس لكل ما في هذه العوامل المادية).

كما نرى البروفسور ادوارد لوتر كيسيل أحد أعلام الاحياء في الولايات المتحدة يقول: (وكما ينبغي أن يتدبر العالم المتفتح العقل وجود الله ويسلم به فإن غير المشتغل بالعلوم ينبغي له أن يفحص هو أيضاً هذه الادلة.ويدرك أن التطور الابداعي هو وسيلة الخالق في خلقه. وأن الله هو الذي أبدع هذا الكون بقدرته وسن قوانينه

الطبيعية. فالخالق الابداعي هو التفسير الوحيد الذي يوضح لنا سر هذا الوجود ويوفق بين ظواهره المختلفة التي يبسطها لنا كتاب الطبيعة التي نقرأ صفحاتها في جميع العلوم).

ويواصل حديثه مدللا على أن التطور هو من خلق الله وصنعه وأن هذه الطفرات هي أيضاً من خلقه وابداعه. ويقول (ليس التطور الا مرحلة من مراحل الخلق) كما يقول (ان فكرة التطور الخلقي لا يمكن أن تكون منافية للعقيدة الدينية بل على النقيض من ذلك نجد من الحماقة والتناقض في الرأي أن يسلم الانسان بفكرة التطور ويرفض أن يسلم بحقيقة وجود الخالق الذي أوجد هذا التطور).

وهكذا نرى البروفسور ادوارد كيسيل يعود بنا الى علماء المسلمين من أمثال أحمد بن سهل البلخي وأبو نصر الفارابي وابن مسكويه والقزويني وابن خلدون والخازني الذين استخدموا نظرية التطور في اثبات العقيدة الدينية وفي إثبات النبوة والوحي.

وهكذا تسير مع المؤلف لترى كيف اتجهت الاهواء بنظرية التطور لتحارب الاديان مع أن مقرراتها أصلا لا يمكن أن تصادم الاديان بل على العكس استخدمها كثير من علماء المسلمين القدماء لاثبات النبوة واستخدمها بعض العلماء المعاصرين لاثبات العقيدة الدينية ومحاربة الالحاد...

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه....

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اكتملت برسالته الرسالات فكان مسك ختامها وأتم الله به النعمة على عباده فكان بدر تمامها، ووصلت به الانسانية الى قمة الاستخلاف الالهي، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد..

يقول العماد الأصفهاني «إني رايت أنه لا يكتب أحد كتاباً في يومه الا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُسْتحْسَن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل؛ وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

ولأمرٍ مّا لم يُشِرْ العمادُ الأصفهاني إلى دور القارىء؛ ودور القارىء -المستبصر - لا يقل عن دور المؤلف في هذا المجال؛ فهو يودّ لو أن المؤلف أضاف كذا، أو نقص أو عدَّل من كذا.. ولكن هذه الامور كلها لا تسير من المؤلف أو من القارىء على الهوى، بل ولا على حاجة القراء؛ وانما يحكمها «الهدف» الذي يرمي اليه الكتاب. فالهدف هو الذي يحدد أن لو كانت الزيادة المقترحة ضرورة أو فضولا؛ والهدف وحده هو الذي يبين أن لو كان الحذف المقترح إخلالا أو منقصة؟ من هنا كان لزاما عليَّ أن أبادر فأؤكد للقارىء الكريم أن هذا الكتاب

الذي أقَدمه بين يديه ليس عرْضاً لنظرية التطور، أو تعريفا بها، وليس هو تاريخا لقضية «التطور» ومن قال به من الناس، وعلى أي شيء استند، وماذا كان رد فعل الناس إزاءه إلى غير ذلك مما قد يدور بذهن المرء؛ وانما الهدف منه توضيح الصلة بين الالحاد وبين هذه النظرية، فأنا لا يهمني من هذه النظرية الا ما يرتبط بهذه الصلة وكل ما خرج عما من شأنه ان يقيم أو يهدم هذه الصلة، فلا محل له - عندي - في هذا الكتاب حتى ولو افاد القارىء علما بما لم يكن يعلمه من قبل، فما كل ما يُعلَم يقال، ولكل مقال مجال...

هناك مثلا علماء سبقوا دارون في هذا المضمار، وهناك نظريات تقول بالتطور سبقت نظرية دارون ولكن لا يهمني من هؤلاء واولاء الا دارون ونظريته، لا لشيء الا لأن كل النظريات التي سبقت دارون لم يكن لها أثر يذكر في الالحاد، ولم يمتشق الملاحدة في معركتهم القائمة بينهم وبين المؤمنين سلاحا امضى من النظرية الدارونية. حتى دارون نفسه!.. ماذا يهمني عن أصله، وبيئته وثقافته الخ الخ؟ لا يهمني منه الا القدر الذي يرتبط بالهدف من هذا الكتاب وهو الصلة القائمة - أو المتوهمة - بين نظريته وبين الالحاد. وكل ما زاد عن ذلك فهو فضول..

ويكفي من السوار ما أحاط بالمعصم.

بل حتى المواضيع التي ليست لها أدنى صلة - مباشرة - بنظرية التطور مثل عامل الشر، والديانة المسيحية (المحرفة)، لم نتطرَّق اليها الا من حيث العتاد الذي أمدّت به الملاحدة، وفي حدود الضوء الأخضر الذي أعطته للتفسير المادي لعملية النشوء والارتقاء فيما يفهم الملاحدة مُحِقِّينَ في ذلك أو مبطلين...

ولقد حفلت المكتبة - الانسانية - بما لا يحصى من الكتب التي تعالج التطور ونظرياته، ولكنها كانت أول الأمر اما منهجية لا

تتعرض الا الى ما يؤيد النظرية، ديدنها حتى اليوم، واما علمية ان تعرضت لمآخذ النظرية فانها تفعل ذلك بصورة لا تهدم النظرية من اساسها. ولقد درسنا النظرية ونحن طلبة على يد المستعمر - الصليبي - على أنها حقيقة لا تقبل الجدل وما زالت حتى اليوم تدرس على هذا النحو في بلاد المسلمين، وما زالت حتى اليوم تصدر الكتب عنها باللغة العربية، اكثرها على أنها أمر مفروغ من صحته وبعضها يتبع الطريقة العلمية الأمينة فيعرض النظرية على صورتها الحقيقية، فلا يظلمها ولا يعطيها أكثر مما تستحق، وأملي أن يكون كتابي هذا من هذا النوع الأخير، الا أن هناك فرقاً بينه وبين هذا النوع - فرقاً ولا أقول ميزة؟

ذلك الفرق هو أنك تجد عن النظرية في هذه الكتب ما لا تجده في كتابي، وتجد عن الالحاد في كتابي مالا تجده في تلك الكتب، فتلك حين نركز على النظرية لا يهمها من الالحاد الا ما ارتبط بالنظرية، وان كان هو الحافز الاساسي لكتابة بعض تلك الكتب، وأنا حين اركز على النظرية وبنفس الدرجة لا يهمني منها الا ما ارتبط بالالحاد، لأن موضوع الالحاد بوجه عام هو المحور الذي يدور عليه الكتاب، ففي تلك الكتب توسع في النظرية، لكن على حساب الالحاد، وهنا توسع في موضوع الالحاد لكن لا على حساب النظرية نفسها وان كان على حساب حواشيها وذيولها التي هي - بحكم الهدف - أجدر أن تعالج في تلك الكتب، لا في مثل هذا الكتاب.

ونظرية التطور بطبيعة الحال من المواضيع التي لا يعقل أن يكون لأي كلمة فيها وزن ما لم تصدر من أهل الاختصاص في مجالاتها المتعددة أو ما لم تكن مستندة على ما قاله هؤلاء المتخصصون في تلك المجالات؟ ولذلك حرصت على ألا اتطفل على هذا الميدان، وألا أورد رأيا أريد أن أقدمه للقارىء إلاّ وأنا مستند على نص من عالم متخصص،

له في هذا الميدان صولة، ولكلمته في هذا المجال وزن واعتبار[١].

وخطر هذه النظرية على «الايمان» لا ينحصر في تفسيرها المادي المجرد لعملية النشوء والارتقاء وانما يمتد الى ميادين أخرى، فقد جسمت بعض المشكلات التي كان يعاني منها الايمان من قديم الزمان، كمشكلة الشر مثلا بفضل ما عكسته عليها من أضواء وما أبرزته لها من أبعاد وما منحته لها من دفع،على انها - كما سيرى القارىء - كانت تقوم منذ أن ظهرت - وحتى اليوم - على التضليل والتلفيق، أكثر مما تقوم على

---

(١) يتورط احيانا بعض الباحثين المسلمين في أمور لا تتصل بمجالات تخصصهم فيصدرون احكاما فيها لا يكون أو المفروض الا يكون لها ادنى وزن عند العقلاء. حتى ولو جاء بعضها صحيحاً، لأن صحتها حينئذ لا تكون مبنية على أساس يعتمد عليه، وانما هي محض المصادفة، ومجرد الاتفاق، ما لجمال الدين الأفغاني مثلاً، او ابي الأعلى المودودي. أو سيد قطب او عبد الوهاب النجار الخ الخ ما لهؤلاء وأمثالهم ولأمور مثل «وجود البرغوت بجانب الفيل، او تشابه السمك في بحيرة اورال وبحر كسبين، او التنوع بين مختلف انواع الحياة واجناسها والتشابه الثابت بين الانسان وبعض الحيوان مما يوحي او لا يوحى انهما منحدران من أصل واحد» هل مثل هذه المسائل تغيب عن «التطوريين وبعضهم ممن لا يشق له غبار في علوم الاحياء والحفريات والوراثة الخ الخ. صحيح انهم احياناً «يستسيغون المحالات» كما يقول الاستاذ يوسف كرم لكن. هل يُعقل ان يرد عليهم بمثل هذه المسائل البديهية نحوي، او فقيه، او عالم اجتماعي، بالغا ما بلغ،او حتى عالم متخصص في الذرة ولكنه من العوام في مثل هذه المجالات.لا شك ان امثال المودودي وسيد قطب واضرابهما جديرون بان يكون لكل كلمة يقولونها الف وزن، وان يوضع لكل حكم يصدرونه الف اعتبار واعتبار بشرط ان تدخل هذه الكلمة وهذا الحكم فيما تخصصوا فيه، اما فيما عدا ذلك، فإنّ من السذاجة ان يرد فقيه - مثلا - على فلكي في مسائل تختص بالخسوف والكسوف، او يجادل مهندس «زراعي» طبيباً متخصصاً في «زراعة القلوب» ما لم يستند اي منهما على جهات الاختصاص ولكل مجال رجال.

واذا كان الاستاذ العبقري الفذ عباس محمود العقاد قد سرد اقوالا (بعضها من هذا القبيل) لجمال الدين الافغاني وغيره في كتابه القيم الفريد «الانسان في القرآن الكريم» فانه انما فعل ذلك بقصد التأريخ، لا بهدف الاستشهاد، لقد انقضى عهد «الموسوعية» ونحن الآن في عهد التخصص ويكفي المسلمين اليوم ما يعانونه مما ترتب على موسوعية الماضي في ميادين التفسير وغيرها مما لا يخفى على العاقل اللبيب، وان كانت هذه الموسوعية في حد ذاتها مصدر اعتزاز ومثار فخر للاسلام والمسلمين، فضلا عن انها مرحلة لا بد للانسانية منها في مشوار المعرفة، ومسالك الهداية والتنوير.

ان من حق اي عالم مسلما كان او كافرا ان يجول ويصول، وان يُستَشهد بما يقول في المجالات التي تخصص فيها، وليس له ان يتعدى ذلك ما لم يكن قد اعد العدة الكافية، كالاستاذ الطود الشامخ والعلم الراسخ فلتة الزمان عباس محمود العقاد فهو الذي اثبت بما لا يدع مجالا للشك انه ما دخل معركة الا اعد لها عدة المتخصصين او تزيد، وهكذا هكذا والا فلا لا، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه.

التحليل والتحقيق، وتشق طريقها في موكب من الدعاية الطنانة، أكثر مما تتشبث به من أسباب العلم الحديث والمنطق السليم، بل وتفرض حصاراً خانقاً على معارضيها من أهل العلم ورجالات الفكر الحر المستقيم، الذين ما زال عددهم يزداد يوما بعد يوم، رغم ما توضع أمامهم من عقبات وعراقيل.

ولقد ساعدت على التفسير المادي - الذي يتشبث الملاحدة بأن النظرية تقدمه - عدة عوامل عرضنا لها جميعا في هذا الكتاب، وان كانت لا تتصل بالنظرية اتصالا مباشرا، الا أنه لا بد من أخذها في الاعتبار لكل دارس يتصدى لموضوع التطور.

ذلك أن المحور الأساسي الذي يدور عليه البحث في هذا الكتاب ليس هو نظرية التطور في حد ذاتها وانما هو ازالة الضباب الذي يبثه الملاحدة حول وجود الذات العلية المقدسة ثم البرهان بعد ذلك على أن المرء اذا اقتنع بأن لهذا الكون مُوجِداً، فلن يجد بين الأديان السماوية دينا غير الاسلام يربطه بالسماء ارتباطاً حقيقياً يشيع بين حناياه السلام النفسي والطمأنينة القلبية، ويضمن له التناسق التام بين متطلباته الروحية والمادية دون أن يلغي عقله، أو يتناقض مع وجدانه، أو يتعثر في تقدمه الحضاري الحثيث، ودون أن يشعر بالنزاع الداخلي الذي لم يُفلِتْ من قبضته حتى رجال الدين في المسيحية، كما يقول العلامة ليكونت دينوي في كتابه مصير البشرية.

إن طائفة ضخمة من المثقفين في أمسِّ الحاجة الى مثل هذا الكتاب، أخص بالذكر منهم أولئك الذين لم يدرسوا نظرية التطور، في المدارس، مثلا، ولم يعرفوا عنها إلاَّ نُتفاً يقرأونها في صحف غير متخصصة؟ أو شذرات يسمعونها من هنا وهناك في بعض المجالس التي تجمع بين لفيف من المثقفين؛ يضاف الى هؤلاء طائفة المثقفين الذين انطبعت في أذهانهم صورة مضللة عن النظرية بحكم ما درسوه عنها في

المدارس بخاصة في البلاد التي رزحت تحت نير الاستعمار ولم تفطن الى السمّ الصليبي المندس في دسم مناهجه التعليمية.

وبما أن موضوع الالحاد هو المحور الأساسي الذي يدور عليه هذا البحث فلن يأتي المجهود الضخم الذي بذل في تأليف هذا الكتاب بأكمل النفع، وأتم الفائدة المرجوة منه الا اذا شق طريقه الى أساتذة الدراسات الاسلامية في الجامعات ومدرسي العلوم الدينية في المدارس الثانوية ومعظمهم في أغلب البلاد التي زرتها، من الذين لا يعرفون عن هذه النظرية الا ما أعرف أنا أو القارىء العادي عن نظرية النسبية المعقدة وربما دعتهم بعض الملابسات لاصدار حكم على نظرية التطور فعادت أحكامهم بالضرر، لأنها لا تقوم الا على تصور خاطىء مرتكز على غير أساس، ويجد القارىء بعض الأمثلة على ذلك في هذا الكتاب.

ولا بد من كلمة شكر خالصة أتقدم بها الى البحاثة الاسلامي الكبير، النطاسي المرموق الموفق الدكتور محمد علي البار، وذلك على التوجيهات المفيدة الرشيدة، والمراجع الكثيرة القيمة التي تفضل فقدمها الي، وكلها، وان جاءت متأخرة، بعد الفراغ من تأليف الكتاب بسنوات عدة، الا أنها تركت بصماتها القيمة في كثير من الصفحات.

والله المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب كل من قرأه، وأن يجعله عملا خالصاً لوجهه مضاعف المثوبة لديه، فالكريم يعطي من يستحق ومن لا يستحق.

محمد علي يوسف

الباب الأول

مدخل

الالحاد في اللغة هو الميل عن القصد، مأخوذ من اللحد، وهو الشق يكون في جانب القبر، سمى بذلك لأنه أُمِيلَ عن وسط القبر الى جانبه، والمُلْتَحَد الملجأ، سمى بذلك لأن اللاجىء يميل اليه. ومن معاني ألحَدَ طعَنَ، وجادل وجار، وكلها لا تخلو من معنى الميل، فلا يطعن أحد في شيء أو يجادل فيه إلا إذا مال عنه أو عما يعتقد خصمه أنه الحق، وأنشدوا «ليس الامام بالشحيح الملحد» أي الجائر المائل.

وتجيء الزندقة بمعنى الالحاد؛ يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن نقلا عن كتاب (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) للامام الغزالي أن العرب كانوا يطلقون لفظ زنديق على من ينفي وجود الله أو ينكر حكمته أو يقول أن له شريكا[1] ويظهر أن العرب المعنيين في هذا النص هم المسلمون في صدر الاسلام، أو أيام الدولة العباسية، ذلك ان الشرك لم يكن معيبا عند العرب قبل الاسلام، وانما كان ظاهرة اجتماعية عامة متفقا عليها في الجملة. جاء في اللسان قال أحمد بن يحيى ليس زنديق من كلام العرب، وانما تقول العرب رجل زندق، وزندقي إذا كان شديد البخل فإذا أرادت العرب ما تقوله العامة قالوا ملحد[2] ولا جدال في أن كلمة الزندقة فارسية معربة ولهذا كانت تطلق في الأصل على النِّحَل التي وفدت على بلاد المسلمين عن طريق الفرس ثم تُوُسِّع في استعمالها، ألاَ ترى أن معنى الزنديق في بعض المعاجم العربية

---

(١) أنظر تاريخ الاسلام السياسي - الجزء الثاني.
(٢) أنظر لسان العرب تحت كلمة «زنديق».

يرد بمعنى من يدين بالثنوية (وان أظهر الاسلام) وفي معاجم عربية أخرى يرد بمعنى المتمذهب بالمانوية إلى غير ذلك من النِّحل الفارسية الأصل.

والالحاد الذي تعاني منه الانسانية اليوم يمكن تقسيمه الى قسمين: -

القسم الأول: وهو الكفر بالله عز وجل - وهذا يستلزم، بطبيعة الحال، الكفر بالاديان المنسوبة الى الله عز وجل، أيا كانت وحيثما كانت...

القسم الثاني: وهو الكفر بسائر الأديان، وهذا لا يلزم منه الكفر بموجد لهذا الوجود.

ولقد مهدت «الكنيسة» - كما سنرى - الطريق للعلم ليجترىء على القسمين معا، أول الأمر، وليحيلهما معا إلى خرافات لا تقوم على أساس... يقول الاستاذ فريد وجدي في مجلة الهداية الاسلامية بعددها الصادر في صفر سنة ١٣٥١ هـ ما نصه[١]:

«تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين، فاقتصر سلاح الدين على ما كان عليه من قوة الاقناع، وفي هذه الأثناء كان العلم يؤتي ثمراته من استكشاف المجهولات، وتخفيف الويلات، وترقية الصناعات، وابتكار الأدوات والآلات ويعمل على تجديد الحياة البشرية تجديدا رفعها عن المستوى فشعر الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا اليه في عهد الحياة الحرة، وتحت سلطان العلوم المادية، وبين ما كانوا عليه أيام خضوعهم لحفظة العقائد. فانتهز الالحاد فرصة هذا الشعور الجديد وازداد كلبا على مهاجمة الدين، واستهتر في مطامعه فرمى الى القضاء

(١) أنظر «موقف العقل والعلم والعالم» للعلامة الاستاذ مصطفى صبري - الجزء الأول - صفحة ٣٧٢، ٣٧٣.

عليه القضاء الأخير[١] ».

ويقول « وهم (يعني رجال الدين) يرون أن العلم والفلسفة ينقصان من أطرافهم كل يوم، وأن الناس يتسللون عنهم زرافات حتى لم يبق سواهم في المجال الذي هم فيه فانبنى على ذلك أن الفلسفة المادية التهمت الطبقات المتعلمة، وأصبحت عنصرا من عناصر روح العصر، تنزل منها العادات والآداب والاخلاق بل والأنظمة والقوانين والمثل العليا »[٢].

ويؤكد أنه قد صرح علماء القرن الثامن عشر، والتاسع عشر بأن عهد الدين قد انقضى، وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامية، فإذا نشر العلم رواقه على العامة، زال الدين كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه »[٣].

وانتهت المعركة الى انتصار الالحاد على الأديان التي نشأ العلم في أحضانها[٤] بخاصة المسيحية يقول الدكتور « ماكسومل » في أول كتابه « الحادثات الروحية » « كثيرا ما يذكر الخلاف والجدال بين العلم والدين، الا أن ما ذكر دُون الحقيقة، وهي أني أرى نشوب حرب عوان بينهما مفضية الى الموت، ومن السهل تعيين المغلوب منهما، بل لقد بدأت سكرات الموت تظهر في عقيدة الدين المسيحي »[٥].

ويقول الاستاذ Edwin Cox:

« تمر النظريات اللاهوتية الآن بمرحلة التدمير والخراب، فإذا كان لدينا الأرض فليس في مقدورنا البناء »[٦].

(١) أنظر « موقف العقل والعلم والعالم » للاستاذ مصطفى صبري الجزء الاول ص٢٧٢ و٢٧٣.
(٢) أنظر المصدر السابق، الجزء الاول الصفحة ٣٧٤
(٣) نفس المصدر السابق، الجزء الاول صفحة ٣٤٠
(٤) القصد من هذا التعبير استثناء الدين الاسلامي، وان كان الجهلاء أو المغرضون يحاسبونه بذنوب المسيحية.
(٥) أنظر موقف العقل والعلم والعالم « تأليف مصطفى صبري - صفحة ٨ الجزء الثاني.
(٦) أنظر كتاب Changing Aims in Religious Education صفحة ٢٩ «R K P»

ويكرر هذا المعنى فيقول:

«لقد انقضى عهد اللاهوت القديم دون أن يحل محله لاهوت جديد[١].

أما فيما يختص بالشق الآخر، معركة وجود الله عز وجل، فان العلم نفسه أصبح سلاحاً للمؤمنين وحصنا منيعا للإيمان. وبعد أن اعتقد «العلماء» في عصر التنوير انهم استطاعوا أن ينزلوا «الله» - تعالى - عن عرشه، كما أنزلت بعض الملوك عن عروشها، أصبحوا هم الذائدين عن هذا العرش بسلاح العلم، والحافظين «للايمان» في حصون الكشوف. يقول الدكتور جورج ايرل دافيز: -

«ان الاعتقاد الشائع بأن الالحاد منتشر بين رجال العلوم أكثر من انتشاره بين غيرهم لا يقوم على صحته دليل، بل إنَّه يتعارض مع ما نلاحظه فعلا من شيوع الايمان بين جمهرة المشتغلين بالعلوم»[٢].

وهذا كلام صحيح؛ لكن ينبغي ألاّ يفهم على إطلاقه - فإذا كان الدكتور دافيز يعني بالالحاد الكفر بالاديان، فلا شك أن شيوع الالحاد واضح بين عامة المثقفين، فضلا عن المشتغلين بالعلوم - أما إذا كان يعني بالالحاد الكفر بالله عز وجل، فإن ملاحظته صحيحة ولا يماري فيها الا مكابر أو جهول. فأكثر العلماء قادهم العلم الى الايمان - الايمان بالله، وان كفروا بالأديان. بل انك إذا قارنت بين المؤمنين بالله وبين الكافرين بوجوده تعالى، بين العلماء. وجدت أن فريق المؤمنين لا يفوق الكافرين في العدد فحسب. كما يشير الى ذلك الدكتور دافيز. وانما يفوقهم حتى في المَزِيَّة والمرتبة العلمية. والمكانة. يقول الاستاذ العقاد (وهو حجة في هذا الباب لتثبته في الحقائق وسعة باعه في المعرفة والعلم) «إن كثيرا من العلماء المتازين يعتبرون تفسير الكون بالارادة

---

(١) أنظر المصدر السابق صفحة ٣٠.

(٢) أنظر «الله يتجلى في عصر العلم» صفحة ٤١.

الإلهية أقرب تفسير الى العقل والى الضمير، وبين هؤلاء أفذاذ من علماء الطبيعة وعلماء الرياضة، أو من العلماء الذين جمعوا بين الطبيعة والرياضة، واستقرت لهم في هذه العلوم مكانة أعلى وأثبت من مكانة المنكرين »[1].

على أن انكار وجود الله الذي تدين به طائفة من العلماء، وشرذمة من أنصاف الجهلاء، ذلك المبدأ الذي لا يقتصر على انكار وجود الله فحسب، وانما يشمل أيضا انكار ما وراء الطبيعة جملة وتفصيلا، وتعطيل الكون من أي قوة خارج نطاق المادة... هذا المبدأ ليس بالجديد على الفكر الانساني، وانما هو نكسة رجعت بالبشرية الى طفولتها الأولى، وان كان هؤلاء المنتكسون يعتبرون أنفسهم من التقدُّمِيِّين... فقد عرف الفكر الانساني في مراحله الأولى فريقا من « الشاركاقا » - مثلا - يذهبون الى « أن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود، واذن فالروح وهم من الأوهام، والاله « اتمان » أبطولة من الأباطيل، وليس هناك أية علامة تدل على وجود قوى خارقة للطبيعة في العالم. كل الظواهر طبيعية، ولا يردها الى الشياطين والآلهة الا السذج »[2] - ولقد كانت طائفة من العرب في الجاهلية - وهم أمة يمثلون الفكر البدائي آنذاك أصدق تمثيل - يقولون فيما حكى القرآن الكريم عنهم « إن هي الا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ».

الا أن هؤلاء المعطلين - « الملاحدة » - كانوا دائما وأبداً قـلّة، ولم يكن لهم (على خلاف أحفادهم « الجدد ») حجة يتذرعون بها، ولا سند يستندون عليه، ولذلك لم يُولهم الرسل عشر معشار ما أَوْلَوْه غيرهم

(١) أنظر « الله » للعقاد صفحة ٢٨٦.
(٢) أنظر قصة الحضارة - تأليف « ديوارنت » صفحة ٥٦ جزء ٣ - ترجمة زكي نجيب محمود. هذا ولعل أول من الف في الالحاد وحاول - عبثاً - أن يفلسفه هو الفيلسوف اليوناني « ديمقرطيس » الذي يُقدِّم في بعض آرائه على أفلاطون.

من الاهتمام، ومن لا سند له ولا حجة، فلا سبيل الى محاجته، فان المحاجة معناها مقارعة الحجة بالحجة وكان مسلك القرآن الكريم معهم - ومسلك الكتب السماوية قبله - هو التجاهل التام بخلاف الكفار الآخرين[١]. أي الذين يؤمنون بالله، لكنهم يشركون به آلهةً أخرى، أو ينكرون البعث والنشور، كما سنرى.

قد تقول إن علم اللاهوت عرف البرهان على وجود الله واستخدمه، وهذا صحيح، إلا أنه إنما كان عن طريق الفلسفة وبتأثيرها، ومع ذلك فإنَّ هذا لا يقدم ولا يؤخر، ذلك أنّ الفلسفة نفسها «لم تكن في عصورها القديمة معنية باقامة البراهين على وجود الله للاقناع بعقيدة والتوسل إلى إيمان: وانما كان الكلام في وجود الله عند الفلاسفة الاقدمين من قبيل الكلام عن مباحث العلوم وتفسير الظواهر الطبيعية، فارسطو مثلا لم يثبت وجود الله ليقنع به منكرا يدين بالكفر والالحاد، ولكنه أثبته لأنّ تفسيره لظواهر الكون لا يتم بغير هذا الاثبات؛ ولم يحاول أن يقنع به أحداً في زمانه عن طريق التدين والايمان، فليس وجود الله عند أرسطو وأمثاله مسألة دينية او مسألة غيبية يختلف الامر فيها بين الاثبات والنفي كاختلاف الهدى والضلال، ولكنها حقيقة عقلية كالحقائق الهندسية التي يتم بها تصور الحركات والأشكال في الأفلاك والسموات»[٢] وما ينطبق على الفلسفة هنا ينطبق على علم اللاَّهُوت «فلقد قضى اللاهوتيون زمنا وهم لا يشعرون بالحاجة إلى إقناع أحدٍ بوجود خالق لهذه المخلوقات، ولم يشعروا بهذه الحاجة إلاّ بعد إختلاط العقائد الدينية بالآراء الفلسفية، ومناظرتهم للمناطقة والمتفلسفين في صناعة الجدل والبرهان»[٣].

---

(١) التوراة والانجيل لم يتعرضا للبرهان على وجود الله تعالى انظر صفحة ١٣ من كتاب The Existence Of God (المقدمة للعلامة جون هك) وصفحة ٢٠٤ فما بعدها للعلامة جون بيلي من نفس الكتاب وهو مجموعة مقتطفات لمشاهير الباحثين تناقش فكرة وجود الله عز وجل، اما موقف القرآن الكريم من البرهان على وجود الله فيحتاج منا الى بحث مستقل، هو الان تحت الطبع. وانظر ايضا الفصل الخاص بادلة الوجود في القران الكريم في كتابنا الجفوة المفتعلة من العلم والدين.

(٢) و(٣) إنظر كتاب (الله) للمرحوم العلامة الفذ الاستاذ عباس محمود العقاد ص٢١٣.

ومعنى ذلك أنَّ الفلسفة وقد عُنِيتْ بالبرهان على وجود الله، واللاهوت حين عَنَّ له أن يُعنَى بالبرهان على وجود الله، لم يكن في حسبان أيٍّ منها[1] أيُّ اعتبار لهؤلاء الملاحدة من «الدهريين» او «الماديين» الذين لا يرون في الكون الا المادة ولا شيء غير المادة، وكان هذا هو الوضع المنطقي الصحيح إذ أنَّ إنكار وجود الخالق يصطدم بمسلَّمة من مسلّمات الحس والبداهة، عاتية راسية شامخة، لا يحاول مصادمتها في ذلك العهد الا الشواذ من الذين انسلخوا من الانسانية، وتجردوا من العقل والاتزان. فالبعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، أفلا تدل هذه المخلوقات على الخالق؟... إلا ان مسلمات الحس ليست حجة على أي حال... لكنها بطبيعة الحال تظل حجة ما لم يثبت ما يطيح بها، وكم من الأمور التي كانت من مسلمات الحس والبداهة فيما مضى عفى على مكانتها الزمن، فاصبحت في منظار العلم - والعقل - محض خرافات؛ أمَّا مسألة وجود الله فلو تركنا جانبا ما يتصل منها بالعلم والمنطق وحصرناها في دائرة ما تقول به البداهة وحدها. فإن معاول العلم لم تقو على هدمها حتى اليوم «ولقد يمكن تصور عدم وجود الله، مع عدم وجود العالم؛ ولا يمكن تصور عدم وجود الله مع وجود العالم» كما يقول «أميل سسه» وما يقول به أي عاقل...

وهكذا ظل وجود الله عبر القرون الطوال مسلّمة عاتية من مسلّمات الحس، وظل من ينكرون ذلك لقىً لا يُعْبَأ به، وسَقَطاً لا يُنْظَر اليه، حتى حين بدأت الكشوف العلمية وأطلّت بواكير النهضة، لم تكن الحملة الالحادية موجهة ضد الله، إن صح التعبير، بقدر ما كانت موجهة ضد ما في الكتابين المقدسين، بل حتى حين وُجِّهتْ التورة على الله، لم تكن الا على «الاله» الذي صوَّرته الاديان (التي أبلاها التحريف) لا على مفهوم

---

(١) اي أول الامر

كلمة الله ، فظهرت حركة الاصلاح الديني ، وهي بطبيعة وصفها مؤمنة بالله ، وظهر علماء خالفت كشوفهم العلمية ما قرره الكتابان « المقدسان » ولم يؤد ذلك الى كفرهم بالله ، ومن هؤلاء نيوتن ، وظهر الالهيون الطبيعيون Deistsمن أمثال Churberyو Collins وهؤلاء وان كفروا بالاديان فقد امنوا بالله...

فالايمان بالله على نحو من الأنحاء ظل الاتجاه السائد في الفكر الانساني أجمع...؟ حتى الماديين الذين تشبثوا بما حققه العلم في بداية عهد النهضة وجعلوا يفسرون الأمور تفسيرا آليا أسقطوا فيه كل ما يتصل بالعناية الالهية او الهدف ، أو أية قوة خارج نطاق المادة ، حتى هؤلاء لم يزيدوا - في الجملة - على ان يستبدلوا الاله المعروف في الأديان بالاهة - انثى - أخرى اسموها « الطبيعة » ونسبوا اليها كل ما للاله الحقيقي من صفات الارادة والتدبير والهدف »[١].

والعبرة بالمسميات لا بالاسماء.

وأيا كان الأمر فإن القرن التاسع عشر كان نقطة تحول بارزة في تاريخ الصراع بين الايمان والالحاد ، وبظهور نظرية « التطور » - الدارونية - المعروفة ، اهتز ان لم يكن قد اختل ميزان القوى في صالح الملاحدة واتخذت المعركة بين الايمان والالحاد شكلا جديدا من جميع الوجوه ، جديدا في أسلوبه ، جديدا في صرامته ، جديدا في مقوماته... صحيح أن الايمان بالله على صورة من الصور ، ظل - كما كان - الاتجاه السائد حتى يومنا هذا ، الا أن الالحاد - بمعنى انكار وجود الله أو بمعنى تأليه الطبيعة - دخل المعركة - لأول مرة - وله من ثقل هذه النظرية وزن ، وأصبح له من هذه النظرية أرض يقف

---

(١) انظر كتاب Introduction To Metaphysics لمؤلفه C. H. Whiteley صفحة ١٣٣

عليها، وحصن يأوي اليه، وسلاح يحارب به، وعثر احفاد « الشاركاقا » على ما لم يتح لاجدادهم الاقدمين، وصار للملاحدة في عالم الفكر والمنطق - صوت يهز الاسماع، وصولة تلفت الأنظار، ودولة لها كيان في آخر الزمان.

ذلك أن نظرية التطور - في حدود تفسير اللاحدة لها - تجتث من الجذور كل الأسس التي يقوم عليها الايمان بوجود الله، فليس في الكون حكمة، ولا في أي اتجاه تسير عليه الكائنات هدف، فإذا كان هناك اختلاف في التكوين الجسماني بين الجرادة والسمكة مثلا فان هذا الاختلاف - في حدود تفسير الملاحدة للنظرية - لا يرجع الى حكمة، ولا إلى ارادة ولا إلى تدبير، ولا إلى هدف، فليس هناك ما يمنع ان تكون السمكة جرادة إذا مرت على آسلافها نفس الظروف التي مرت على أسلاف الجرادة في تنازعهم على البقاء، واذا كنا نجد الآن الناموسة بجانب الفيل، ومن قديم الآباد مثلا، فان هذا لا يعني أن الفيل خلق فيلا، وان الناموسة خلقت ناموسة، وانما يعني أن أسلاف الفيل في اثناء تطورهم بحكم شتى العوامل كان يمكن أن ينتهوا إلى ناموسة لو صادف أن سلكوا نفس المسلك الذي سلكه اسلاف الناموسة، وعاشوا نفس العوامل والظروف وستظل الناموسة ناموسة والفيل فيلاً ما لم يطرأ على الظروف التي يتنازعون فيها على البقاء طارىء. فتمثيلية التنازع على البقاء التي يمثلها الأحياء على مسرح الكون لم يُشاهَد فيها عنصر غير عنصر المادة، حتى الحكمة فهي نابعة من الأحياء أنفسهم لا من مصدر خارجي، إذ ليست هي الا تكيُّف الحيِّ بالكيف الذي يلائم الظرْفِ الذي يعيش فيه، حتى التدبير فإنه ليس الا محض المصادفة التي ساقت الحيّ بمجرد الاتفاق الى الوضع الذي تسبب بدوره في المصير الذي انتهى اليه... يقول داروِن « إن من الأمور الحتمية عندي، أنه إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن ان نجعل من

حيوان ذي ظلف عادي حيوانا مثل الزراف »[١] ويقول هكسلي « إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة » كما جاء في كتاب Religion Without Revelation . ص ٥٨[٢] .

وهكذا انتهى الملاحدة في عصر العلم والمعرفة الى ما بدأ به أسلافهم في عصور الجهل والظلمات، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. وهكذا أصبحت نظرية التطور سدا منيعاً يحجب عن الطالبين أسباب الهداية والإيمان، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً... وبديهي أن تحدث هذه النظرية عند ظهورها ضجة عظيمة عارمة ما زالت أصداؤها تتردد حتى اليوم وبديهي أن تجند الأوساط الكنَسِيّة أو الدينية لمقاومتها كل ما أوتيت من قوة.

ولقد انتشر هذا المذهب أول الأمر انتشارا واسعا، لعوامل مختلفة سنعرض لها في حينها، وأخذ يستقطب أفكار العلماء والمفكرين، حتى إنه « في سنة ١٨٧٠ أخذت نظرية التطور تنتشر في كل صقع تقريباً، وفي سنة ١٨٨٠ كان نفوذ المذهب الداروني عاما ومطلقا حتى كاد يبلغ بسموه سمت الرأس »[٣].

ورغم أنه في « سنة ١٨٩٠ بدأت بعض الشكوك تعتلي، وبعض المقاومات تظهر، وعلامة التصدع تبينت[٤] » وانجلت الحقائق للعيان حتى أنه « في العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معدودة »[٥] رغماً عن ذلك كله فان هناك عديدين ما زالوا يدينون به.

---

(١) نقلا عن كتاب « الاسلام يتحدى » لمؤلفه وحيد الدين خان – الطبعة الثانية (معربه) ص١٠١.

(٢) نقلا عن المصدر السابق صفحة ٢٧.

(٣) و(٤) من كلام العالم الالماني ادوارد فون هراتمان نقلا عن كتاب الاسلام ونظرية دارون للاستاذ باشميل صفحة ٦٥.

(٥) من كلام العالم الالماني ادوارد فون هراتمان نقلا عن كتاب الاسلام ونظرية دارون للاستاذ باشميل ص ٦٥.

وكان تحمسهم له باسم حرية الرأي أشد من تحمسهم له ايمانا بحقيقته واعترافا بكفايته »[١].

ولعل من المفارقات أن يستوي في هذا المسلك الملاحدة منهم والمؤمنون فقد انحصر الخلاف بين الفريقين لا في صحة النظرية أو فسادها، وانما في التفسير الذي تفسر به هذه النظرية هل يؤدِّي إلى الالحاد ضرورة كما يرى الملحدون أو لا يتنافى مع الايمان كما يعتقد المؤمنون. يقول الدكتور «أدورد لوثر كبل» أستاذ علم الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسسكو «فالتطور ليس إلا احدى السنن الكونية أو القوانين الطبيعية وهو كسائر القوانين الأخرى يقوم بدور ثانوي لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه ولا شك في أنه من خلق الله وصنعه، والكائنات التي تنشأ بطريق عملية الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله أيضا كما خلق القوانين التي تخضع لها فالانتخاب الطبيعي ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاً؛ وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة والتكاثر بين الأنواع المختلفة؛ أما الأنواع التي يتم فيها هذا الانتقاء فانها تنشأ عن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهَّم الماديون أو يريدوننا أن نعتقد »[٢].

وعزف على نفس الوتر الفيلسوف المشهور «جود »[٣].

ويقول «امانوئل دونووا» (إن هذا المذهب لا يمانع بالخالق، فالمؤمن مختار بعد الاقتناع بعدم كون المادة معلولا بلا علة بل أثر إرادة مطلقة... مختار في قبول أن كل حادثة ليست بفعل تلك الارادة

(١) الانسان في القرآن الكريم للعقاد ص٩٩ طبعة دار الهلال.
(٢) أنظر كتاب «الله يتجلى في عصر العلم (معرب) صفحة ٣١.
(٣) أنظر كتاب Recovery Of Belief. للفيلسوف الشهير سي. أي. ام. جود صفحة ٩.

الخصوصي، وانما هي محصول قوانين موضوعة في المادة بيد تلك الارادة المطلقة فإن الخالق يستخدم العوامل الطبيعية كعمال مطيعين لأوامره في صور محيرة للعقول)[1].

ويقول الاستاذ يوسف كرم:

«قد نسلم بالتطور ثم ترانا مضطرين الى اعتبار الانسان نوعاً قائماً بذاته بسبب ما يختص به من علم ولغة وفن وصناعة وخلق ودين، وهي مظاهر للعقل لا نظير لها ولا أصل في سائر الحيوان، وقد نسلم بالتطور ثم ترانا مضطرين الى الاقرار بموجد للمادة، موجه لها، لقصور المادة عن تنظيم نفسها... ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيسيغون الْمُحَالاَت»[2]

وهنا لا بد لنا من وقفة:

إنّ قبول أي عدد من العلماء لهذه النظرية يوحي بأنها قد تكون صحيحة فإذا لم تكن صحيحة مثلاً، فلماذا قبلها هؤلاء العلماء؟ أو ما هي العوامل الخارجة عن النظرية والتي ساعدت على قبولها؟ ثم إذا كانت هذه النظرية صحيحة أو قدر لها أن تكون صحيحة في يوم من لأيام، فما موقف الكتب السماوية منها.

هذا بعض ما سنعالجه في الصفحات التالية من هذا الكتاب، مستمدين العون من الله، فهو ولي الهداية والتوفيق.

---

(١) أنظر كتاب موقف العقل والعلم والعالم «للعلامة المرحوم الاستاذ مصطفى صبري ص٤٥٩ جزء ٢. على أننا نحب أن ننبه هنا الى أننا حين نستدل بأقوال العلماء المؤمنين بالله والذين لم يصرفهم قبول نظرية التطور عن الايمان بخالق للكون، منظم وموجه للتطور، نعم، حين نستدل بأقوال هؤلاء، لا يهمنا منها الا ايمانهم بوجود الله، وبرهانهم عليه، وأن خالفناهم - كمسلمين - في بعض التصورات الأخرى كالتي وردت في القول المقتبس من «دونووا» هذا، مثل «كل حادثة في العالم ليست بفعل تلك الارادة الخصوصي» اذا فهمت هذه العبارة على ظاهرها.

(٢) أنظر تاريخ الفلسفة تأليف الاستاذ يوسف كرم ص٣٥٥ طبعة دار المعارف.

الباب الثاني

تقويم عام

الفصـــل الأول

هل نظرية التطور ثابتة علميا؟

يتحمس عدد من العلماء لنظرية التطور تحمسا يضعها في مصاف الحقائق العلمية الثابتة؟ ويوحي كلامهم عنها بأنَّ صحتها أمر لا يقبل الجدل.

من هؤلاء العلماء Pierre Teilhard de Chardin وهو من أعظم المفكرين المعاصرين، فقد وصف هذه النظرية في كتابه The Phenomenon of Man بأنها أكثر من نظرية، وأكثر من نظام System وأكثر من فرض... بل أنها كما يستطرد، الصَّنَم الذي تَنْحَني له جميع النظريات، وجميع الفروض وجميع الأنظمة الخ الخ(١).

ومن هؤلاء العلماء G. G. Sampson الذي يقول - فيما نقله عنه الاستاذ وحيد الدين خان - «إن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا، وكليا، وليست بقياس او فرض بديل صيغ للبحث العلمي»(٢).

«ويعتقد محرر دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨) ان نظرية الارتقاء في الحيوانات حَقيقة»(٣).

وقبل أن أتعرض إلى تأييد هذه الآراء، أو تفنيدها، أحب أن

---

(١) أنظر صفحة ٢٤١ من الكتاب المذكور.
(٢) أنظر «الاسلام يتحدى» ص٤٩.
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

ألفت النظر الى أنّه ما من عالم قال بمثل هذه الآراء ، الاّ وجاء هو نفسه بما يطعن في صحتها ، أو على الأقل ما يقيد من إطلاقها ، ويشجب من تعميمها ؟

فالعلامة P. T. de Chardin (الذي تصدر هذا الثالوث) يقول في مقابل قوله السابق ، وفي نفس الكتاب الآنف الذكر « إننا لن نحصل على تفاصيل لهذه القصّة - يعني قصة التطور - مهما بَلَغَت أبحاثنا التاريخية في هذا المجال... وما لم يتمكن العلم غداً من إنفاذ هذه العملية في المختبر ، فمن المحتمل الاّ نعثر على أدنى دليل مادي نتوصل به إلى كيف نشأت جرثومة بالغة الصِّغَر ، من جزيّيء ، وكيف أنّ كائنا عضويا تكوّن من اللاعضوي ، وكيف انّ الحيَّ تطوَّر من سلف حي ». والأفضل أن أنقل النص نفسه .

No amount of historical research will ever reveal the details of this story. Unless the science of tomorrow is able to reconstruct the process in the laboratory, we shall probably never find any material vestage of this emergence of the microscopic from the molecular, of the organic from the chemical, of the living from the pre-living.» [١]

وأما Sampson (الذي توسط هذا الثالوث) فقد وصف انتقال الأحياء من العهد السابق للعهد الكمبري Precambrian بأنه « أكبر لغز في تاريخ الحياة » [٢] أو على حد تعبيره The Major Mystery of The History of life وبديهي ان نظرية تتألّف حلقاتها من حلقة تعتبر أعظم

(١) أنظر The Phenomenon Of Man صفحة ٨٧ .

(٢) أنظر مجلة - The American Biology Teacher عدد مارس ١٩٧٣ م - صفحة ١٣٥ .

لغز، فضلاً عن حلقات اخرى مليئة بالألغاز (كما سنرى) بديهي أن نظرية كهذه لا توصف بأنها حقيقة الا بافتعال وتعصب.

وأما ما قاله محرر دائرة المعارف البريطانية المشار اليها، فيقابله ما قالته هذه الموسوعة نفسها، استمع اليها وهي تقول:

«لا يمكن لأحد القول بأن هناك اتفاقاً عامّاً بين العلماء على الكيفية التي أدَّتْ إلى وجود هذه الأنواع المختلفة من الكائنات الحية، بل ولا يمكن ان يدعي احد ان هناك اتفاقا بين العلماء على الروابط التي تربط كل مجموعة بسلفها المفترض»[1].

فإذا لم يكن هناك اتفاق عام على العملية التي تنوعت بها الكائنات الحية، كما هو الواضح من هذا النص، ولم يكن هناك تطابق في الآراء الخاصة بصلة كل مجموعة حية بمجموعة اخرى، فكيف نجرؤ على القول بأن نظرية التطور «وصلت طور الحقيقة»!

وسواء اكان هذا ام ذاك فاننا - كما يقول الاستاذ العقاد - «إذا رجَعْنَا الى مكان مذهب التطور من العلم، لم نجد من يحسبه علماً قاطعاً مفروغاً من أصوله وفروعه. وأكبر انصاره لا يدعي له اكثر من أنه صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته»[2].

والحماس الذي نلمسه من بعض اكابر العلماء لهذه النظرية، والذي يملي عليهم بعض الأحكام المطلقة التي توحي الى القارىء العادي انَّ هذه النظرية صحيحة من جميع الوجوه، انما يرجع لأسباب ليس لها علاقة مباشرة بنظرية التطور نفسها، كما سنرى.

يقول السير ارثر كت فيما نقله عنه الاستاذ وحيد الدين خان من مجلة Islamic thought (ديسمبر ١٩٦١ م).

---

(١) أنظر دائرة المعارف البريطانية - صفحة ٦٦٠ - المجلد الثالث طبعة ١٩٧٢م.

(٢) انظر «عقائد المفكرين» للاستاذ العقاد صفحة ٥٩.

« ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ولا سبيل إلى اثباتها بالبرهان. ونحن لا نؤمن بها الا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى مجرد التفكير فيه »[١].

وهذا الكلام هو ترجمة حرفية لما قاله البرفسور د.س.م وطسن وهذا نصه:

Evolution has been accepted by scientists not because it has been observed to occur, or proved by a logical co- herent evidence to be true, but because the only alternative, special creation, is clearly unacceptable».[٢]

وهو كلام لا بد لنا فيه من وقفة: -

قد يستسيغ المرءُ القولَ بأنَّ الحقائق نسبية، كلها، او بعضها، أما أَن يُصْبح الباطل حقا، لمجرد ان البديل له باطل مثله، فهذا ما لا يقول به الا من يحاول ان يخدع نفسه، أو يخادع الناس!

ونظرية التطور لا تخرج عن هذا الاطار، فهي اما ان تكون نظرية علمية مِنْ ذاتها، لا من أي مصدر خارج عنها فيكون قبول العلماء لها امرا محتماً، وأما الا يكون فيها من ذاتها ما يعتمد عليه العلماء في قبولهم لها، وحينئذ، لن يشفع لها بطلان البديل، بل ولا بطلان سائر النظريات، لأن الباطل لا يصبح حقا بالمقارنة الى باطل مثله، وانما قد يكون اكثر أو أقل فساداً، وبُطلاناً، ولكن يبدو أن « من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة فيستسيغون المحالات »[٣] -كما يقول الاستاذ يوسف كرم - لذلك تراهم يصرون على أنها ثابتة، وليس لديهم الدليل - المطلوب!

واذا اطَّرحْنا هذا - على أهميته - جانبا، فما الذي يجعل

(١) أنظر كتاب « الاسلام يتحدى » صفحة ٤٣.

(٢) أنظر Recovery Of Belief للفيلسوف العلامة جود - صفحة ٢١.

(٣) أنظر كتاب « تاريخ الفلسفة » للاستاذ يوسف كرم صفحة ٣٥٥ - طبعة دار المعارف.

« نظرية الخلق المباشر » أمراً « لا يمكن حتى مجرد التفكير فيه » كما يقول السير آرثر كيت في النص السابق؟

صحيح أن « الخلق المباشر » لا يدخل في دائرة العلم الحديث حسب التقسيم المصطلح عليه في مجالات المعرفة، ومصادرها المختلفة... لا لشيء الا لأنه لا يخضع للتجربة والمشاهدة، وانما هو امر استأثر الله به « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خَلْقَ أنفسهم... » ولكن ألا ينطبق نفس الشيء على نظرية التطور؟ هل تخضع نظرية التطور للتجربة؟ هل تدخل في دائرة العلم الحديث؟

البروفسور Duane T. Gish يجيب بالنفي[١].

ورغم انه حجة في ذلك، فانه يمضي الى الاستشهاد بأقوال غيره من اهل الاختصاص[٢]، مثل العلامة T. Dobzhansky في مقالة له نشرت بمجلة Science (العدد ١٢٧. سنة ١٩٥٨ م) بعنوان Evolution at Work، ومثل العلامة R. B. Goldschmidt في مقالة بعنوان Evolution Viewed by one Geneticist نشرت في مجلة American Scientist (العدد ٤٠ – سنة ١٩٥٢ م) فإذا كانت نظرية التطور لا تدخل، او لا تنطبق عليها الشروط التي تجعلها تدخل، في دائرة العلم الحديث شأنها في ذلك شأن نظرية الخلق المباشر، فلماذا هذا التطفيف، وعلى أي أساس ترفض هذه، ويُحْتَفَى بتلك؟

إذنْ إذا أردنا ان نفاضل بين نظرية التطور، ونظرية الخلق المباشر فعلى أي أساس نفعل ذلك...

لنبدأ اولا بتوضيح معالم النظرية – أي نظرية – وابراز ملامحها.

---

(١) انظر مقالته Creation, Evolution & The Historical Evidence في مجلة The American Biology Teacher – مارس سنة ١٩٧٣م.

(٢) المصدر السابق صفحة ١٣٣.

النظرية - أي نظرية - إنما هي الهيكل العام أو الاطار العام الذي تندرج تحته وتنسجم فيه كل التفسيرات للظواهر المختلفة المراد تفسيرها في ميدان ما... ومع ذلك فلا يكون هذا الاطار أو هذا الهيكل حقيقة. يقول البرفسور T. Dobzhansky:

«ان النظرية يمكن التثبت من سلامتها عن طريق جملة من الحقائق التي من المفروض ان تندرج تحتها، فإذا ثبتت سلامة النظرية على هذا الأساس فانها لن تُعتبر حقيقة. ولن تكون حقيقة، كل ما في الأمر أنها تكون نظرية سليمة، أو مؤصلة، أو مبرهنا على صحتها كنظرية لا على صحتها كحقيقة[١]».

ولذلك نرى جيمز. ب. كونانت يسمي النظرية «بالمشروع التصوري الذي يمكن اعتباره عند صياغته فرضا تمهيديا كبيرا ثم بتراكم الأدلة على صحته يكون مشروعا تصوريا جديدا ثم يكون لهذا المشروع حياة تقصر او تطول وفقا لما يستنتج الناس منه من استنتاجات[٢]».

وامكان التوصُّل الى استنتاجات من المشروع التصوري، لا يخرج به عن دائرة (الصورة الذهنية) بحال من الأحوال، ولا يضعه في مصاف الحقائق تحت أي ظرف؛ فالظواهر الضوئية مثلا تفسر بمشروعين مختلفين، مشروع يتصور العالم الضوء فيه كأنّه حركة مَوْجِيّة والآخر يتصور الباحث فيه الضوء على أنه «شعاع من نور يتألف من دقائق تجري فيه متلاحقة على خط سوي» حسب تعبير الدكتور جيمز كونانت. على أن الضوء «لا يمكن ان يكون موجات ودقائق في نفس الوقت[٣]».

---

(١) أنظر مجلة - American Biology Teacher مارس ١٩٧٣ صفحة ١٢٥

(٢) أنظر كتاب «مواقف حاسمة في تاريخ العلم» الدكتور جيمز ب. كونانت ترجمة المرحوم احمد زكي ص٣٦٧ و ٣٦٨.

(٣) أنظر المصدر السابق ص٥٧.

على ضوء ذلك هل يصح اعتبار نظرية التطور مشروعا تصوريا، وان لم تكن حقيقة في حد ذاتها، شأنها في ذلك شأن أي نظرية من النظريات، هل يمكن اعتبارها ولو فرضا ظنياً عملياً Woking Hypothesis. كما يعتبرها الدكتور G. A. Kerkut[1]. مع أنه لا يؤمن بنظرية الخلق المباشر؟ طبعا يمكن ذلك لكن بشرط واحد... وهو أن تقدم تفسيراً كاملاً، منسجماً، للحياة والأحياء دون تحفظ، او تعسف، أو قصور، أو تخلف. فهل نظرية التطور تقدم لنا مثل هذا التفسير؟ وحتى على فرض أنها تحقق ذلك، فهل هناك ما يمنع أن يكون التفسير الذي تقدمه نظرية الخلق المباشر هو التفسير الصحيح الذي لا بديل مثله، ولا مأخذ عليه؟ وهل صحيح ما يقال من أن الخلق المباشر لا يمكن حتى مجرد التفكير فيه لدى العلماء.

هذا ما سنتناوله بالبحث في الصفحات التالية بإذن الله، مستندين في كل ما نذكر على ما يقول العلماء المتخصصون في هذا الباب، أو الباحثون في هذا المجال.

(١) أنظر مجلة American Biology Teacher عدد مارس ١٩٧٣م ص١٣٩ و١٤٠

الفصل الثاني

الاساس الذي تقوم عليه نظرية التطور هل يمكن الاعتماد عليه؟

ان نظرية التطور تستمد وجودها، وفعاليتها، من استنطاق الحفريات، وما سجلته العضويات في الصخور القديمة عبر الآماد الطويلة، طبقة بعد طبقة. وهذا هو المصدر الأساسي الذي تنطلق منه هذه النظرية، والعامل الرئيسي الذي له الكلمة الأولى والأخيرة في الحكم على هذه النظرية...

يقول الأستاذ .LE GROS CLARK

«ان البرهان الحاسم ينبغي أن يستند على ما يقول به علماء البلنتلوجيا (الاحاثة) الذين تقع على عاتقهم مهمة استنطاق المستحاثات وقراءة آثار العضويات في الصخور[1]».

ويعزف على هذا الوتر Gavin de Beer. فيقول:

«ان الكلمة الفاصلة التي يرجع اليها في مدى صحة التطور، والطريق الذي تسلكه عملية التطور انما هي كلمة علماء البلنتلوجيا دون غيرهم»[2].

إذن: لنستنطق الحفريات، وما سجلته الصخور:

يقول العلامة ليكونت دينوي في كتابه مصير البشرية ما نصه

(١) و(٢) أنظر .The American Biology Teacher عدد مارس ١٩٧٣ م ص١٣٤

بالحرف الواحد: -

«الشروط الواجب توفرها لحفظ عظام المستحاثات بحالة صالحة خلال ملايين السنين ليست متوفرة دائماً وصيانة النسج والأعضاء بحالة صحيحة أمر نادر الوجود[1].

وأوضح من ذلك وأقوى في الدلالة، ما قاله الكاتب الانجليزي المعروف هـ.ج. ولز.

«ان الصخور القديمة لا تعكس أي أثر للحياة مطلقا؟ على أننا حين نسمي هذه الصخور «سجلا» فإن هذا «السجل» الذي نعنيه هنا لا يحمل أي معنى من معاني التنظيم التي تحملها هذه الكلمة عادة. كل ما نعنيه من كل كلمة سجل هنا أن الأحياء تعكس آثارها على هذه الصخور، فتكون الصخور سجلا لهذه الآثار. على ان هذه الصخور ليست منظمة في طبقاتٍ الواحدةُ تِلْوَ الأخرى بحيث تستقيم قراءتها تباعاً[2].

«لا؛ إنها مشتّتة، مبعْثرة هنا وهناك بشكل فوضوى. مشوهة، كمكتب عانى من غارة شعواء فتشتّتَ ما فيه واضطرب، أو أصابته هزة أرضية أو اشْتعلت فيه النيران أو عبثت به الاضطرابات[3]».

وخلاصة ما جاء في هذا النص هو:

أولا: «أن الصخور المعنة في القدم، والضاربة في أعماق التاريخ البعيد، لا تعكس أي أثر للحياة مطلقاً، حتى تلك التي كان ينتظر - بناء على نظرية التطور نفسها - أن تعكس آثار العضويات فيها. ويعزو الدكتور بروك ورث وزميله هذه الظاهرة الى «ان الخلايا كانت رقيقة هشة، فلم تخلف آثارا في الصخور[4]... وهو عذر يمثل جانبا

(١) أنظر «مصير البشرية» (مترجم) صفحة ٦٨.

(٢) و (٣) أنظر كتاب Outline Of History (Revised Edition) صفحة ٢٢ و ٢٤

(٤) أنظر «طبائع الاحياء» تأليف بروك ورث وزميله (مترجم) صفحة ٢٣ - مؤسسة سجل العرب.

صغيرا جدا من الحقيقة، ويبقى الجانب الأكبر من الحقيقة متحديا هذه التخرصات (التي دأب على مثلها هؤلاء التطوريون) والتي لا ترقى الى مرتبة أعلى من التخمين... إن أقدم مستحاثات Fossils موثوق بها ترجع الى ما يسميه الجيولوجيون بالعهد الكمبري Cambrian وهي تتألف من أشكال معقدة من الأحياء، تبدو وكأنها ظهرت فجأة. مع أن الصخور «كانت صالحة لتسجيل أسلاف لها[١]» كما يقول العلامة D. I. Axelord ويصف هذه الظاهرة بأنها من المشكلات الكبرى التي تحيط بنظرية التطور، وعلم الجلوجيا (طبقات الأرض)[٢].

ولقد سمى الاستاذ G. G. Sampson هذه الظاهرة «أعظم لغز في تاريخ الحياة» أو على حد تعبيره The Major Mystery of the History of life[٣] ويصور هذه الحقيقة أفضل تصوير العلامة ليكونت دينوي في كتابه «مصير البشرية» حيث يقول «ان التطور يبدو لنا كفيلم سينمائي غير تام. فهناك أجزاء عديدة مفقودة ولا نعرف عنه سوى مرحلته الحاضرة، وبعض مقاطع من الماضي نحاول الربط بينها قدر استطاعتنا[٤]».

ونتيجة لذلك «فاننا نستطيع أن نتظنن في أمر الحياة ونشأتها، ما وسعنا الظن، ولكن الباحث في هذا الأمر أحسبه لن يجد الا آراء قليلة تقدم بها أصحابها في هذا الموضوع لا يمكن الا بشيء من الكرم أن نسميها فروضا مثمرة نافعة[٥]». كما «أن الآراء التي تخرج تحاول تفسير أصل الحياة كثيرة كل عشرة منها بقرش»[٦] وهو ما عناه ليكونت دينوي حين قال انه «لا توجد حقيقة واحدة، أو نظرية واحدة تقدم تفسيرا قاطعاً لمولد الحياة وتطور الطبيعة»[٧] و«ان سبب وحتى حقيقة

---

(١) و(٢)و(٣) أنظر مجلة American Biology teacher. عدد مارس سنة ١٩٧٣ صفحة ١٣٥.
(٤) أنظر كتاب مصير البشرية (مترجم) صفحة ٤٨.
(٥) و(٦) أنظر «مواقف حاسمة في تاريخ العلم» تأليف جيمز كونانت (مترجم) ص٤٠٩ و ٤١٠
(٧) أنظر «مصير البشرية» تأليف ليكونت دينوى (مترجم) ص١٢٩.

التطور لا تدخل ضمن علمنا الحاضر، ولا يمكن لأي عالم على وجه الأرض ان ينكر ذلك[١] ».

ثانياً: الحقيقة الثانية التي يصورها لنا النص السابق للكاتب المعروف (ولز) هي أننا حين نعبر عن هذه الصخور بأنها سجل للتطور، فينبغي أن نطرد عن أذهاننا أية فكرة لأي نوع من التنظيم تحويه كلمة (سجل) في كلامنا العادي، حيث أن هذه الصخور ليست طبقات متوالية الواحدة بعد الأخرى، بل أنها على العكس من ذلك تماما مما يجعل محاولة ضبط تسلسل الأحداث التي تعكسها أمراً بالغ الصعوبة، كيف لا والنص يصور هذه السجلات ككتب في مكتب عانى من غارة جوية عارمة، أو هجوم حربي طاحن، أو زلزال أرضي مدمّر، فإن مثل هذه السجلات تكون ممزقة، ومشتتة، ومتداخلة، ومتناثرة، ومطموسة الصورة، أو مشوهة كما يصرح بذلك النص نفسه. ويترتب على هذه الحقيقة «أن الحقائق الموجودة تحت تصرفنا هي آثار تركتها العضويات في العصور القديمة، وقد يحدث أن نجد بصمات قديمة جداً كثيرة الشبه بالبصمات التي تتركها أنواع حديثة فنظن أن هذا النوع الحي يماثل عمليا النوع الذي كان موجودا منذ العهود السحيقة[٢] »، مما يؤدي بدوره الى «أن المخططات الوصفية للتطور مختلف عليها وهي موضع مناقشة وبحث دائم[٣] ».

فكيف يستخلص من مثل هذه الفوضى حقيقة لا تقبل الجدال، أو نظرية «تنحني لها جميع النظريات، وجميع الفروض، وجميع الأنظمة...» كما يدعي Teilhard de Chardon. مما سبق أن سقناه اليك؟

(١) المصدر السابق صفحة ١٩٢.

(٢) أنظر «مصير البشرية» للعلامة ليكونت دينوي صفحة ٦٤.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

انها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

الفصل الثالث

المسلمات التي تبني عليها نظرية التطور تحيلها الى مسألة «غيبية»

الغريب أن «التطوريين» - حتى أكثر المؤمنين منهم - لا يؤمنون بالغيب، إذا جاء على لسان رسول، أو ورد في كتاب مقدس، لكن إذا عجزوا عن تفسير شيء، لم يتورعوا ان يخترعوا لأنفسهم عالم غيب، خاص بهم، فيه يصولون، ويجولون، وعليه يعْتَمِدُون.

وإذا لم تستح فاصنع ما شئت.

لهذا نراهم يقيمون نظرية التطور على فرضين، أو بالأحرى مسلمتين «غيبيتين تعتبران حجر الزاوية في تفسير التطور العضوي»:

المسلمة الأولى: «أن العضويات الصغيرة في كل جيل من الأجيال تنزع دائما إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة[1]».

المسلمة الثانية: «أن التغييرات المفيدة تورث في الأجيال التالية وتتراكم نتائجها حتى ينتج عنها تغييرات جسيمة[2]».

ولتأييد أن هاتين المسلمتين حقيقتان صارختان، وليستا مجرد فرضين «غيبيين» يسلك التطوريون مسالك تثير الضحك، وان كانوا يخدعون بها العوام حتى من المثقفين، من أمثلة ذلك قول الدكتور

---

(١) و(٢) أنظر «الله يتجلى في عصر العلم» صفحة ٧٢ وانظر أيضاً Introduction To Metaphysics لهوايت لي صفحة ١٣٢.

« بروك ورث » وزميله في كتابهما « طبائع الأحياء »:

« وأفضل ما استطاعه دارون، وقد كان موفقا في ذلك أيما توفيق، هو أنه أكد ما كان الناس جميعاً يعرفونه، ويتقبلونه قضية مسلمة لا يفكرون فيها، تلك هي أنه لا يتماثل فردان من أي نوع تماثلا كاملا... »[1].

هل عدم تماثل الأفراد المشاهد الآن، دليل على تطور الحي المعقد من الحي الأقل تعقيداً، إلى الأبسط؟ ان هذا التفسير لا يبرهن على نظرية التطور وصحتها وانما يفترض منذ البداية ان نظرية التطور صحيحة، ثم يشرح الطريقة التي تطورت بها الأحياء فهذا - على حد تعبير المناطقة هو عين « المصادرة على المطلوب » - والا فقد يسلم المرء بأن الطيور التي نراها الآن، وان لم تتماثل افرادها، لم تتطور عن « زواحف » وانما هكذا وجدت الطيور، وهكذا وجدت الزواحف من قديم الزمان، وظلت - كما كانت منذ البداية - لا تتماثل أفرادها تماثلاً كاملاً، وهذه حقيقة لم تستطع بصمات الأحياء المسجلة في الصخور، ان تنفيها كما سنرى ذلك في موضعه.

وسواء كان هذا أو ذاك فإن « علم الوراثة » لم يقدم لنا دليلا على صحة هذين الفرضين اللذين أقام عليهما تشارلز دارون نظريته في نشأة الأنواع « كما يقول الدكتور أدوارد لا مبرنس اخصائي علم الوراثة، كما مضى فبرهن على فساد الفرضين[2].

وليس هذان الفرضان - الفاسدان هما المسلمتين الوحيدتين في نظرية دارون وان كانتا تعتبران حجر الزاوية فيها... فهناك مسلمات أخرى كثيرة يستند عليها الملاحدة وغيرهم - في تفسير هذه النظرية...

---

(١) انظر صفحة ٢٣٩ من الكتاب المذكور - ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي (مؤسسة سجل العرب) - سنة ١٩٦٣.

(٢) أنظر الله يتجلى في عصر العلم « صفحة ٧٢ ».

من هذه المسلمات القول بأزلية المادة، وهو قول كان له بعض الاعتبار وبعض الوزن (من الناحية الجدلية) في أيام الاغريق، وعصور ما قبل النهضة. أما اليوم فإن القانون الثاني للديناميكا الحرارية نسف القول بأزلية المادة. ووضعه في مصاف الخرافات «يقرر هذا القانون ان الحرارة تنتقل من الساخن الى البارد. من الحرارة الأعلى إلى الحرارة الأدنى حتى يتعادل المستويان، فيتوقف التعادل الحراري، ولو كان الكون أبدياً، أزلياً بدون ابتداء لكان التعادل الحراري قد توقف في تلك الآماد الطويلة المتاحة، وبالتالي لتوقفت كل صور الحياة ولبردت النجوم، وصارت بدرجة حرارة الصقيع والخواء حولها وانتهى كل شيء[١] ». ولكننا مع ذلك نجد مفكرين يعتبرون في الطليعة من قادة الفكر، من أمثال «بيرتراند رسل الذي ربما كان أعظم الفلاسفة المعاصرين على الاطلاق[٢]، نجده يعتبر أزلية الكون، أمراً لا يقبل الجدل واليك نص عبارته في هذا المعنى بالحرف الواحد.: «The Universe is just there and that is all»[٣]. بل ويعتبر حتى مجرد السؤال عن علة أو سبب لهذا الكون «أمرا غير منطقي[٤]». ما كان أصدق الاستاذ يوسف كرم حين قال – مما سبقت الاشارة اليه – ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيستسيغون المحالات... ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

ومن هذه المسلمات ارجاع كل الكائنات الحية الى خلية أولى تفرعت منها سائر الأنواع التي نراها الآن، بما فيها الانسان، وقد يكون ذلك من الناحية الجدلية معقولا ولكن ليس في نظرية التطور ما يثبت ان

(١) انظر رحلتي من الشك الى الأيمان «للدكتور مصطفى محمود» صفحه ١٧.
(٢) أنظر كتاب The Existence of God (مجموعة مقالات) سلسلة مشاكل الفلسفة تقديم جون هك صفحة ١٦٧.
(٣) المصدر السابق صفحة ١٧٥.
(٤) المصدر السابق صفحة ١٧٨.

غير هذا ليس بصحيح. فقد «تكون هناك بدايات متعددة، بداية تطورت الى نباتات، وبداية تطورت الى فرع الحيوانات. كالاسفنج مثلاً، وبداية أخرى خرج منها فرع آخر كالأسماك، وبداية خرج منها الانسان، وبذلك يكون للإنسان جد منفصل، ويكون لكل نوع جد خاص به... ان التشابه التشريحي للفروع والأنواع لا ينفي خروج كل نوع من بداية خاصة[1]»... كما أن «خروجها كلها من أب واحد ليس نتيجة محتمة لتشابهها التشريحي[2]» كما تريد النظرية أن تحملنا على التسليم به.

والاسترسال في ذكر مسلمات هذه النظرية يخرج بنا عن الغرض المقصود، ويكفي ان تعلم ان «أحد المعاجم العلمية عرَّف نظرية دارون بأنها نظرية قائمة على تفسير بلا برهان[3]».

(١) و(٢) انظر «حوار مع صديقي الملحد» للدكتور مصطفى محمود صفحة ٩٨.
(٣) أنظر «الاسلام يتحدى» صفحة ٤٣ نقلا عن كتاب Revolt Against Reason ص١١١.

الفصل الرابع

نظرية التطور هل تفسر نشأة الأنواع وتطورها

الواقع أن الجزء الأكبر، والأساسي، والأهم يبقى دون تفسير من هذه النظرية، أو على أساس هذه النظرية، والذي تقدمه لا يعدو أن يكون جزءا ضئيلاً ينزل الى درجة التفاهة، وهذا هو ما قاله الدكتور R. Danson في مقالة له نشرت بمجلة «New Scientist» سنة ١٩٧١ م بعنوان Darwin Retired استمع اليه:

«إن نظرية التطور لم يعد لها بين أيدينا مكان - ذلك لأنه، أصبح من المفروغ منه أن الداروينية الحديثة، لم تعد قادرة على تفسير أي شيء اللهم الا بعض التغيرات الطفيفة التي لا يُعبأ بها[١]».

ويتكلم الدكتور N. Macbeth في بحث له بعنوان Darwin Retired فيذكر عدم صلاحية نظرية التطور، وفشل الصخور في الإجابة على المسائل الكثيرة التي ما تزال تعتبر من الألغاز والطلاسم التي لم تستطع النظرية ايجاد التفسيرات او الحلول المناسبة لها[٢].

وهذان الرأيان، كما هو واضح، يجتثان نظرية التطور من جذورها، ثم ينسفانها في اليم نسفا - (على أن صاحبي هذين الرأيين ما زالا

---

(١) أنظر مجلة The American Biology Teacher صفحة ١٣٣ - عدد مارس سنة ١٩٧٣ م.
(٢) المصدر السابق صفحة ١٣٤.

يتمسكان بنظرية التطور بحجة فساد البديل) ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

ولنضرب بعض الأمثلة التي تدل على قصور النظرية عن تفسير ما يحملونها تبعاته من تطور.

ليكونت دينوي يتكلم:

«أن أصل الحيوانات الفقرية والتي تمثل من وجهة نظرنا أهم مجموعة في عالم الحيوان لم يتمكن من تفسيره حتى الآن تفسيراً كاملاً[١] - ويصور هذه الفكرة، وبدون تحفظ، العلامة البرفسور T. Duane Gish حيث يقول: (ان فكرة تطور الفقريات من اللافقريات ما هي الا فرض لم يقم على صحته دليل من نظرية التطور[٢]).

ويقول ليكونت دينوي: «جميع أنماط الزواحف التي تعود الى الرتب الثلاث (يعني التي سبق أن فصلها) ظهرت فجأة، ومن المستحيل ربطها بأي سلف أرضي، ونفس الشيء ينطبق على السلاحف»[٣].

هذا، وقد ذكر المؤلف في هذا الصدد أنه «لا يملك حقائق دقيقة تمكنه من معرفة كيف ظهرت هذه السلاحف والزواحف، ولا من أي نوع تطورت[٤]» - ويقول R. D. Ommaney «أننا لا نعلم كيف تطورت الأشكال الحبلية Chardate ولا بأي المراحل مرت حتى انتهت آخر الأمر إلى مخلوقات شبيهة بالسمك[٥]».

ويرى ليكونت دينوي أن نفس المشكلة تنطبق على الثدييات «ولم يمكن للعلم حتى الآن تفسير ذلك وربطه بأسلاف تطورت منها بالتدريج[٦] -

(١) أنظر «مصير البشرية» (مترجم).
(٢) أنظر مجلة The American Biology Teacher صفحة ١٣٥.
(٣) أنظر «مصير البشرية» (مترجم).
(٤) أنظر «مصير البشرية» (مترجم).
(٥) أنظر The American Biology Teacher صفحة ١٣٦.
(٦) أنظر «مصير البشرية» (مترجم).

ويستطرد دينوي فيقول: «من المستحيل ايجاد رباط حقيقي بين مجموعة حديثة، ومجموعة قديمة، ولذلك فاننا نتساءل عما إذا كان الانتقال من مجموعة إلى أخرى قد تم بصورة فجائية، أم بصورة متصلة قليلا أو كثيراً[١]» وقد أعلن «اوستن كلارك» العالم البيولوجي أنه «لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيًّا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره، إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة ويضيف «لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن»[٢].

ويقول عالم الأحياء الألماني المعاصر ايريك واسمان Eric Wasman في كتابه المسمى Modern Biology and theory of evolution «أن البقايا المكتشفة في الحفريات لا تؤيد من جهة نظر علم الوراثة أي نظرية عن أصل الإنسان[٣]». وإلى هذا يشير G. G. Sampson بقوله:

«اذا كنا نعجز عن ايجاد رباط بين الثدييات وأسلافها فإن هذه ليست مشكلة قاصرة على الثدييات وحدها وانما تشمل كل أشكال، وفصائل وأنواع الكائنات الحية بما فيها النباتات[٤].

ويقول «ليكونت دينوي» «يمكننا أن نقول انه ليس هناك شكل يعيش حالياً، وهو سلف مباشر لشكل آخر[٥]» وهذا هو ما عناه G.G. SAMPSON حين قال:

«إن الحلقات المفقودة تشمل كافة أنواع الكائنات الحية وفصائلها،

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٨).

(٢) أنظر كتاب مذهب النشوء والارتقاء لمنيرة علي الغاياتي صفحة ١٣ نقلا عن مجلة Literary Digest

(٣) نقلا عن المصدر السابق صفحة ١٦.

(٤) أنظر The American Biology Teacher (ص١٣٨) نقلا عن كتاب Tempo & Mode In Evoluion

(٥) أنظر «مصير البشرية» مترجم.

وهي فجوات دائما مُطَّردة، وضخمة[١].

حتى التي قد يُتَخيَّل أن لها روابط تسلسلية كشفت عنها السجلات الصخرية لا تخدم الغرض من هذه الناحية يقول ليكونت دينوي:

«أمكن وضع روابط تسلسلية للحصان بواسطة ستة أشكال وسطية تنتهي بالحصان الحالي، لكن هذه الأشكال الوسطية تبدو وكأنها ظهرت فجأة، وحتى الآن لم نتمكن من معرفة الجسر الذي يربط بين هذه الأشكال الوسطية[٢] وإلى هذه الحقيقة أشار R. B. Goldschmidt بقوله الذي هو ترجمة للنص العربي السابق:

«Moreover, Within the slowly evolving series, like the famous horse series, the decisive steps are abrupt.»[٣]

ألم يكن العالم الامريكي المعاصر أنتوني ستاندن على حق حين قال في كتابه العلم بقرة مقدسة «إنه لأقرب من الحقيقة أن نقول إنَّ جزءا كبيرا من السلسلة مفقود وليس حلقة واحدة بل إننا لنشك في وجود السلسلة ذاتها[٤]».

ويلخص البروفسور ن. هريبرت نلسن Nilsson رأيه بعد دراسة للموضوع استمرت اربعين سنة فيقول «ان سجل المستحاثات والصخور اصبح الآن كاملاً؛ ولا معنى لما يقال من ان هناك حلقات مفقودة. ليست هنالك حلقة واحدة مفقودة. فاذا لم نستطع - كما هو الحاصل - ان نستخرج للتطور ولو صورة كاريكاتيرية من المعلومات التامة الكاملة المسجلة في الصخور، فان هذا انما يرجع الى الأمر الواقع

(١) أنظر The American Biology Teacher صفحة ١٣٩.
(٢) أنظر مصير البشرية» (مترجم).
(٣) أنظر The American Biology Teacher صفحة ١٣٩ نقلا عن مجلة The American Scientist العدد ٤٠ ص٩٧ سنة ١٩٥٢م.
(٤) أنظر كتاب «مذهب النشوء والارتقاء» لمنيرة علي الغاياتي ص١٤.

الذي يجعل احتمال اي حلقة مفقودة ضربا من الوهم ونوعا من طلب المحال »[١].

هذا غيض من فيض مما يمكن أن يستدل به على أن النظرية التي تفسر تطور الأحياء لم تولد بعد... وإذا كانت قد ولدت فانما هي في أذهان العلماء « التطوريين » وأوهامهم ليس الا ، ولا عجب « فإن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيسيغون المحالات » كما مر بك من قول الاستاذ يوسف كرم في غير ما مرة.

أنا أعرف كثيراً من السخفاء أو الببغاوات البشرية التي تردد ما لا تعي من الألفاظ سيعترضون هنا بما يسمى في علم (الوراثة) بنظرية الطفرة Mutation theory كـأن ليكونـت دينوي هـذا وأمثـالـه لم يعرفوا نظرية الطفرة، ولم يسمعوا بها ولم يعيروها أدنى اهتمام أو اعتبار حينما يدلون بمثل هذه الأقوال. فلننظر اذن موقف العلم من الطفرة، ومدى اعتماد العلماء أنفسهم عليها حين يصدرون ما يصدرون من أحكام.

يقول الدكتور (أيرفنج وليام) الاخصائي في وراثة النباتات، وأستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشيجان « ولا شك أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت الى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن نقول إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها الا عن طريق التسليم، فهي لا تقوم على أساس المنطق والاقناع[٢] ».

ويقول الدكتور وولتر أدوارد لا مبرنس اخصائي علم الوراثة: -
(وتعتبر هذه الطفرات على قلتها الأساس المادي الذي يبني عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور ولكن هل يمكن أن تكون

(١) انظر مقالة Was Darwin Wrong بمجلة Life الامريكية الصادرة في ابريل سنة ١٩٨٢ بقلم العلامة فرانسيس هيتشنق.
(٢) أنظر « الله يتجلى في عصر العلم » صفحة ٥٤.

الطفرات حقيقة وسيلة للتطور؟ ان الدراسة الطويلة المتصلة لهذه الطفرات في كثير من الكائنات وخاصة ذبابة الفاكهة المسماة « دروسوفيلا ميلا نوجستر » تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت أما الأنواع غير المميتة منها فإن التغييرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي الى التشويه أو على الأقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد فمن الصعب - إذن - أن يؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثية الى التغييرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة تعتبر أكثر تقدما ورقيا من أسلافها)[١]. ويقول أيضا (وقد تؤدي الطفرة في بعض الحالات النادرة الى تحسين صفة من الصفات كما يحدث في جناح « الدروسوفيلا »، ولكن إجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى التي تطرأ على الجناح تؤدي الى تكوين حشرات أقصر عمراً وأقل قدرة على الحياة. ولكن دعنا نسلم جدلا بحدوث طفرات نادرة تصحبها تحسينات فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الأجيال لكي تتراكم ويظهر أثرها وينتج عنها نوع جديد؟ لقد أوضح « باتو » في كتاب (التحليل الرياضي لنظرية التطور) أن تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة؛ وحتى لو سلمنا بقدم الأحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون فمن الصعب ان نتصور كيف أن حيوانا حديثا نسبيا مثل الحصان قد نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمسة، في الفترة من العصر الحجري (الايوسيني) الحديث حتى الآن »[٢].

ويقول العلامة ايرنست تشين [الحائز على جائزة نوبل « ان تفسير ظواهر التطور وبقاء الاصلح على أساس الطفرة العشوائية امر لا يقوم

(١) نفس المصدر السابق صفحة ٧٢و٧٣.

(٢) « الله يتجلى في عصر العلم » صفحة ٧٣.

على أساس ويتحدى جميع الحقائق »[١].

من هذا يتضح أن من يزج بالطفرة في هذا المجال يكون قد آتكأ على جرف هار فانهار به الى حيث انهارت النظرية من قبل.

ولكن التطوريين، ولا سيما الملاحدة منهم، ما انسد امامهم باب الا تعللوا بباب آخر، فكما تشبثوا بالطفرة، وقد رأيت من أمرها ما رأيت كذلك تراهم يتشبثون بالهين آخرين اتخذوهما من دون الله عز وجل، وخلعوا عليهما كل صفات الله تعالى، هذان الالهان المزيفان هما « المصادفة والطبيعة ».

وسترى ان كل ما أقحموه من العروش لتنصيب هذين الصنمين كالهين لا يعدو أن يكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده.

افمن يخلق كمن لا يخلق؟

---

(١) انظر مقالة Was Darwin Wrong المنشورة بجريدة Life الامريكية الصادرة في ابريل سنة ١٩٨٢ للعلامة فرانسيس هيتشنق.

الفصل الخامس

من المسلمات.. الى التقديس.. الى التضليل...
الى الخرافة... الى الارهاب

وليت نظرية التطور وقفت عند المسلمات[١].

إنها تعدتها الى السذاجة العمياء والخرافة البلهاء: يقول الاستاذ « بيب » T. W. Beeb أحد علماء الطبيعة الأميريكان في كتابه « الطائر » ص٩٧ « إن التغيرات الاعجازية التي نفترض أنها قاصرة على القصص الخرافية أمور عادية جداً في نظرية النشوء والارتقاء[٢]؛ ويقول الدكتور « ماكنيرْولْسن » في منشورات اكسفورد الطبية « إن نظرية النشوء والارتقاء لا تقل عن أي قصة خرافية[٣].

ولعل القارىء يحتاج إلى معرفة مثال، ولو واحد، من هذه الخرافات... حينما عجز التطوريون عن البرهان على ان الطيور تطورت من الزواحف «REPTILES» فكر أحد كبارهم المرموقين وهو « قولدشمدث » Coldschmidt وتلفّت يميناً وشمالاً ثم جاء بالبرهان. ما هو هذا البرهان؟ حدث في قديم الزمان وسالف العصر والأوان « ان زاحفا REPTILE باض مرةً بيضة، فلما فقست البيضة هل تدرون ماذا خرج منها يا أطفال؟ الأطفال « نعم. زاحف » السائل لا لم يخرج زاحف « الأطفال »، وماذا يمكن أن -أو يعقل أن - يخرج!« السائل »: « فقست بيضة الزاحف فخرج طائر. أول طائر يرى النور! » هكذا

---

(١) انظر الفصل الثالث ص٤٧ من هذا الكتاب.

(٢) و (٣) نقلا عن كتاب النشوء والارتقاء لمنيرة علي الغاياني ص٩.

يقول قولدشمدث على جلالة قدره[١] ولم تكن نسبة « الطائر » الى جده الأول باغرب من نسبة هذه الفكرة استغفر الله الخرافة الى مثل هذا العالم الكبير. ترى هل صدّقه اخوانه من العلماء التطوريين الكبار؟! أقول وماذا يمنع؟ ألم تصل نظرية التطور عند القائلين بها الى مرتبة « العقيدة » المقدسة عند المتدينين. يقول البرفسورت. س. مور « كلما تعمقنا في دراسة البلنتولوجيا (علم الحفريات) كلما اكتشفنا أن نظرية النشوء ترتكز على الاعتقاد، نفس الاعتقاد الذي تتطلبه الأسرار العظمى للدين[٢]. أقرب مثال لذلك، الاعتقاد بأن زاحفا باض بيضة خرج منها الجد الأعلى للطيور، طائر يطير بجناحيه، أليس هذا هو بالضبط والتمام مثل السر الأعظم المتمثل في أن « السيد المسيح قام من القبر بعد ثلاثة ايام و« طار » إلى السماء، على أننا قد نجد من المسيحيين من يكفر بذلك، وربما يكفر بالمسيحية نفسها من أجل ذلك، لكن هؤلاء التطوريين يتمسكون بالنظرية مهما قال « العلم » فيها. يقول البرفسور د. هـ. سكوت « أن نظرية النشوء جاءت لتبقى، ولا يمكن ان نتخلى عنها، حتى ولو أصبحت مجرد عمل من أعمال الاعتقاد[٣] » ويشرح ذلك الجيولوجي. و. داوسن فيقول « هذا الاعتقاد هو نوع من الايمان الأعمى الممتزج بالسذاجة والخرافة[٤] » ويقول العلامة دانسون « بالرغم من التحدي الرهيب الذي يجابه النظرية في السجلات الصخرية التي تعتمد عليها، وبالرغم من الصعوبات الكأداء التي لا حصر لها، والتي يقابلها الباحث (ليجعل من هذه النظرية - المزعومة - نظرية بالفعل) بل بالرغم من أنه لا توجد أي نظرية معقولة يمكن الاعتماد عليها في القول بالتطور، بالرغم من كل ذلك يظل التطور حقيقة لا تقبل الجدل[٥] » ويردد نفس الاسطوانة العلامة ماكبث[٦].

(١) أنظر مجلة American Biology Teacher عدد مارس سنة ١٩٧٣م صفحة ١٣٩.

(٢) و(٣)و(٤) أنظر كتاب « مذهب النشوء والارتقاء » لمنيره علي الغاياتي صفحة ٧ (مكتبة وهبة).

(٥) أنظر مجلة American Biology Teacher عدد مارس صفحة ١٣٣

(٦) المصدر السابق صفحة ١٣٤.

هذه هي « الموضوعية » التي يفهمها التطوريون، وهذا هو العلم! ما الفرق بينهم إذن، وبين النعامة التي تدس رأسها في الرمال كي تكون في مأمن من الصياد.

وليتهم وقفوا عند هذا الحد، فقد أخذوا يزيِّفون « الوقائع » ليجعلوا من الباطل حقا، وينشروا هذا الباطل باسم العلم، ولحاجة في نفس صهيون! فهـا هو هيغـل Ernest Haeekel عـالم الأحيـاء الالماني يستخدم رسوما للتدليل على التّماثُل بين الجنين البشري والحيواني ليصل من ذلك الى دعم قضية تطور الإنسان من الحيوان، لكن ما لبث العلماء ان اكتشفوا تزويره في هذه الصور، واضطر هو نفسه الى الاعتراف بتزويرها[1] حين لم يكن له مفر من ذلك ولا مناص، ولو كان « هيغل » هذا هو المزور الوحيد، أو أحد قلة من المزورين، لهان الخطب، ولو إلى حد، الا أنه قال بعد اعترافه « يُعزِّيني أن أرى بجانبي في كرسي الاتهام مئات من شركائي في الجريمة وبينهم عدد كبير من الفلاسفة المعول عليهم في التجارب العلمية وغيرهم من علماء الأحياء (البيولوجيا) فإن كثيرا من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة المنتشرة والمعول عليها مزور مثل تزويري تماما لا يختلف عنه في شيء[2] ».

« على أن الطامة الكبرى » - كما جاء في كتاب العائلة البشرية - « قد وقعت فيما بعد، فاكتشف العلماء في سنة ١٩٥٣ أن بقايا أنسان بلتدو PILTDOW MAN مزيَّفة، وأنها زُيِّفتْ عمداً بواسطة مكتشفها مستر داوسون بقصد خدعة العلماء وتصيدا للشهرة، فلقد اتضح ان هذا الاكتشاف المهم لم يكن سوى خدعة جازت على العلماء أنفسهم « حيث » ان التعديلات التي ادخلت على الجمجمة كانت من الدقة بحيث لم

(١) و(٢) أنظر كتاب نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيها للاستاذ قيس القرطاس الصفحات ٣٣ و ٣٤ و ٦٨.

تكتشف في ذلك الحين[١] ».

هذا غَيْض من فَيْض، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، فما هو السبب في هذا التضليل؟ هل صحيح ما يقوله لورين ايزلي من ان الذين قاموا بمثل هذه الجرائم انما قاموا بها «ليكسبوا من وراء ذلك بعض المال من الباحثين وبذلك شَوَّهَ التزييفُ وجهَ الحقيقة[٢]. قد يكون في ذلك جانب واحد من الحقيقة، بعض الحقيقة لا كلها! ومن الجوانب الأخرى للحقيقة، ولعله أهمها، ما جاء في البروتوكول الثاني من بروتوكولات صهيون «لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رَتَّبناه من قبل، وان الأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الامي سيكون واضحا على التأكيد»[٣] كما جاء في موضع آخر «أن دارون ليس يهوديا ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين[٤] ». أي الدين غير اليهودي بطبيعة الحال، ليخلو الجو لليهود، فانما الأمم الأخلاق ما بقيت. ومن أبشع الوان التضليل ان يستمر التطوريون المتعصبون في ترديد «الاسطوانات» التي يُزْعَمُ أنها تؤكد صحة النظرية، ولكن العلماء المتحررين قضوا عليها قضاء تاما، حتى دائرة المعارف البريطانية، مع الأسف الشديد، وهي من أوسع المراجع والمفروض أن تكون من أكثرها نزاهة - موضوعية - خاصة فيما يتعلق بمسائل علمية لا تترتب - أو المفروض الا تترتب - عليها مصلحة غير معرفة الحقيقة المجردة. فهي ما زالت تردد الاسطوانة التي عفى عليها البحث فتقول «أن التحليل الإحصائي لنتائج «التركيبة» التي قال بها «مندل» رجعت بعقارب الساعة الى آراء تكاد تكون مطابقة لما قال به دارون» «واليك ما قالته بالحرف:

---

(١) أنظر تفاصيل ذلك في المصدر السابق ص٨٧.
(٢) المصدر السابق ص٧٦.
(٣) المصدر السابق ص١٧٠ نقلا عن كتاب الخطر اليهودي ص١٢٣.
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة نقلا عن كتاب التطور والثبات ص٣٣.

The analysis of the statistical consequences of the Mendelian mechanism led to a return to views more nearly like those of Darwin.(١)

بينما يقول بير تراندرسل «لقد اخطأ داروين في قوانين الوراثة فغيرتها نظرية مندل تغييرا كلياً(٢)».

وما يقال عن قانون مندل هذا، يقال عن أي خيط تتشبث به هذه النظرية لاثبات وجودها، ان لم يكن في دائرة المعارف البريطانية نفسها، ففي غيرها من الكتب والمراجع بل والموسوعات: فالحفريات ما تزال يُتَقَوَّل عليها ما لم تقل، والطفرة ما فتئت يُحْتَجُّ بها رغم كل شيء، و«المصادفة» ما برحت يُسْتَشْهَدُ بها فيما يدحضه ويكذبه «حساب الاحتمالات» والحساب لا يكذب، وهكذا الى ما لا نهاية له من الافتراء والتضليل.

ولا بأس من ذكر مثال آخر او مثالين من آلاف الأمثلة التي يمكن ان تذكر في هذا المجال، حتى تتضح للقارىء الصورة المخزية للتضليل الذي لا يتورع عنه هؤلاء التطوريون، ومدى الخيانة التي يرتكبونها في حق العلم، وباسم العلم نفسه، مع الأسف الشديد.

مثال من كتاب طبائع الأحياء(٣) للدكتور بروك ويرث وزميله فقد ذكر المؤلفان وهما عالمان جليلان ان «داروين كان موفقا كل التوفيق» (كذا؟) فيما اسماه داروين التغاير الذاتي كظاهرة تؤيد ما ذهب اليه من تسلسل الأحياء. وقد ضرب المؤلفان عرض الحائط بكل ما قاله العلماء

---

(١) أنظر دائرة المعارف البريطانية سنة ١٩٦٨، المجلد الثامن صفحة ٩١٨ تحت كلمة Evolution

(٢) أنظر نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها للاستاذ قيس القرطاس صفحة ١٠٤ نقلا عن كتاب النظرة العلمية ص٣٤.

(٣) أنظر الكتاب المذكور الصفحات ٢٣٩ الى ٢٤١ ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي (مؤسسة سجل العرب) سنة ١٩٦٣م.

الذين يعتبرون هذا التغاير الذاتي مسلمة من المسلمات التي تبنى عليها نُظرية التطور، ولا يقوم على صحتها أي دليل. ومن هؤلاء العلماء الدكتور ادوارد لامبرنس اخصائي علم الوراثة، فكيف يكون دارون - او غيره - موفقا كل التوفيق وقد خالفه العلماء فيما يُزْعم أنه قد وُفِّق فيه؟

ونختتم بمثال آخر - وليكن هذه المرة كتابا من الكتب المنهجية التي تدرس في البلاد الاسلامية! (العربية) الشقيقة، ففي الصف الثالث الثانوي في بلد شقيق يدرس كتاب اسمه «التاريخ الطبيعي» وهو كتاب يعتبر البديل لنظرية التطور (أي الخلق المباشر الخاص) «مجرد فكرة تكتفي بالنظرة السطحية للأمور[1]» هكذا، وبجرة قلم واحدة ودون ان يلتفت ادنى التفاته، أو يولي اقل اعتبار لما يقوله العلماء المعارضون لنظرية التطور والمؤيدون للبديل الوحيد عنها (الخلق المباشر) والذين اصبح عددهم يزداد يوما بعد يوم.. والذين يرون بدورهم ان نظرية التطور هي التي تكتفي بالنظرة السطحية الى الأمور»

ان الباحث، إذا تعارضت امامه فكرتان فأنه يكون كالقاضي فأي وزن لقاضٍ يقبل كلام المدّعِي حجة، دون ان يستمع الى المدَّعَى عليه، وأي وزن لحكم يصدره على هذا الأساس؟ وفتش عن صهيون، ومخدوعي صهيون.

على أن الخطب في كل ذلك قد يهون، فالخرافة يرفضها العقل قبل العلم، والخدعة لن تنطلي على العلماء، حتى وان طال الوقت، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله، انما الطامة الحقيقية هي الارهاب، الارهاب الفكري الذي جعل التطوريون يمارسونه حتى يخلو الجو لنظرية التطور هذه وحدها، الارهاب الفكري الذي يسلطه هؤلاء التطوريون على كل من يقول بغير التطور في موضوع الخلق والتكوين، الارهاب الفكري

(١) أنظر مجلة الدعوة (القاهرية) العدد السادس في (ذي الحجة) سنة ١٣٩٦هـ.

الذي كان الغطاء والظهير لهذه النظرية حتى تشق طريقها، وباسم العلم دون منازع.

ان كنت في شك من ذلك فاليك البرهان.

يقول الدكتور «دقلس ديور Dewer» ان الذين لا يؤمنون بنظرية التطور يعتبرون (لدى الهيئات العلمية المسيطرة) غير أهل لأي منصب علمي فترفض الجرائد والمجلات مقالاتهم، وتشجب الجمعيات العلمية مبتكراتهم، وتمتنع دور النشر عن نشر مؤلفاتهم. حقا لقد كُمّت أفواه «المستقلين» أيما تكميم[١].

ويقول البرفسور DWIGHT - أستاذ علم التشريح - وهو يعزف على نفس الوتر: «أن روح العصر التي تتجلى في موضوع التطور، تفرض نوعا من التحكم والاستبداد على عقول العلماء لا يحس به الا من ابتلى به، ان هذا الاستبداد لا يقف عند التأثير في العقول، وفي طريقة التفكير فحسب، وانما يتعداه الى القهر والارهاب الذي نقرأ عنه في تاريخ العصور المظلمة، ألا ما أقل رجالات العلم الذين يستطيعون ان يفصحوا عما في عقولهم رغما عن كل شيء[٢]».

ويتكلم البرفسور Duane T. Gish عن السلطة التي كانت تفرضها الكنيسة على العقول، كيف رجعت بنفسها فيما يختص بنظرية التطور الى الدوائر العلمية، وجمعيات العلوم «مما أدى إلى اختناق روح البحث العلمي أمام الأفكار المفروضة على الناس دون تفكير او برهان. واليك ما قاله بالحرف:

«The majority of the scientific community and educational circles are using the clock of «Science» to Force the teaching of their view of life upon all. The

(١) أنظر كتاب Fanaticism, Intolerance & Islam ص٢٩ تأليف خورشيد احمد.

(٢) نفس المصدر السابق صفحة ٣٠/٣١.

(٣) أنظر مجلة The American Biology Teacher عدد مارس سنة ١٩٧٣م ص١٤٠

authoritarianism of the Medieval Church has been Replaced by the authoritarianism of rationalistic materialism. Constitutional guarantees are violated and Free scientific inquiry is Stifled under this blanket of dogmatism».

وترجمته كالآتي:

« ان الغالبية العظمى من « العلماء » ورجالات التربية والمعرفة يتخذون من « العلم » ستارا ليفرضوا به على الناس آراءهم الخاصة بتطور الأحياء. إن استبدادية ودكتاتورية الكنيسة في القرون الوسطى قد حلت محلها استبدادية ودكتاتورية هذه النزعة المادية في تفسير الأشياء. ولا تسل عن الضمانات التي تكفلها الدّساتير لحرية الفكر فقد انتهكت حرمتها انتهاكا كما خُنِقَتْ أنفاسُ البحث العلمي الحر تحت كابوس هذه المعتقدات المتزمتة التي يُروَّج لها باسم العلم. والتي لا تدع للبحث العلمي الحر متنفَّساً يتنفس به »

وهكذا وبفضل هذه الحماية، وهذا الارهاب، استطاعت نظرية التطور، أن ترسخ أقدامها، وأن تعيش طويلا، لا على أساس مقوماتها الذاتية، وانما في أحضان هذا الحصار العنيد المضروب بيد من فولاذ على كل الآراء والنظريات المناوئة، كما استطاعت أن تشق طريقها على أكتاف الدعاية المضللة الواسعة الانتشار.

وفتش عن الصهيونية، فقد مر بك من قبل ما نقلناه عن الصهاينة من أن « دارون ليس يهوديا ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين ».

ولكن للحق صولة:

وبفضل هذه الصولة، استطاعت الأفكار المناوئة ان تتخطى الحواجز وتتحدى السدود، وتجد طريقها الى النور...

فقد قال: العالم البريطاني الشهير هـ.ج. ويلز: -

«إن موضوع تسلسل الانسان الحيواني لا يزال ينكره بغاية من الشدة الكثير من الرجال المقتدرين بل كثير من رجال العلم، فحكومة ولاية «تنسي» قد بلغ من اقتناعها بنقيض هذه النظرية أن منعت تدريسها في جميع مدارسها وكلياتها[١]».

وفي مقاله بعنوان:

Creation, Evolution and the Historical Evidence استطاع البرفسور GISH[٢] أن يصور لقطات خاطفة لكنها مكثفة، للانقلاب الخطير الذي حدث في هذا المجال، «وكيف أن الآراء المناوئة لنظرية التطور استطاعت ان تتسرب داخل هذا «الستار الحديدي» وتثبت وجودها، وأفضليتها على أيدي علماء أصبح عددهم كبيرا لدرجة لا يستهان بها، فضلا عن أنهم من بين رجال الطليعة في هذا الميدان[٣]».

ولقد توالت الحملات واشتدت الضربات على هذه النظرية في السنوات الأخيرة بخاصة في فرنسا، فيما يقول البرفسور GISH, حتى أن سنة ١٩٦١م شهدت أعنف تحد لهذه النظرية ولقد بلغ هذا التحدي قمته في مقالة بعنوان SHOULD WE BURN DARWIN? (أما آن أن نحرق دارون) نشرت بمجلة SCIENCE ET VIE الفرنسية. ولقد كانت هذه المقالة خلاصة لمقابلات قام بها الكاتب AL ME, MICHEL مع عدد من أهل الكلمة في هذا الموضوع أمثال MRS ANDREL TETRY التي تعتبر حجة عالمية في مشكلات التطور، وكالبرفسور الغني عن التعريف RENE, CHAUVIN وغيرهما من العلماء الذين يعتبرون مراجع فذة في علوم الأحياء.

---

(١) معالم تاريخ الانسانية ٦٣/١ نقلا عن كتاب نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها صفحة ١٤٦.
(٢) مجلة The American Biology Teacher عدد مارس سنة ١٩٧٣م صفحة ١٣٢.
(٣) المصدر السابق صفحة ١٣٤.

على أن مما تجدر الاشارة اليه «أن هناك عددا كبيرا من العلماء »، كما يقول «R. G. OLSON» تتنافى وتتعارض آراؤهم مع المفهوم السائد لنظرية التطور، ويرون فسادها، وقصورها الا أنهم - لسبب أو لآخر - لم يشاؤا أن يفصحوا عن آرائهم هذه بالكتابة ووسائل النشر المعروفة[١] ».

وبذلك تكون هذه بداية النهاية لهذه النظرية التي قامت من أول يوم على التضليل: نقول بداية النهاية مع انها النهاية، لأن الحيوان إذا ذبح فإنه لا يموت على الفور، وانما يصارع الموت حتى ينصرع - قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا، وصدق الله العظيم.

---

(١) أنظر مجلة American Biology Teacher صفحة ١٣٣ عدد مارس ١٩٧٣م.

الباب الثالث

الطبيعة والمصادفة

الفَصْـل الأول

تمهيد

(أ)

الطبيعة والمصادفة هما الحصنان اللذان يرجع اليهما الملاحدة في تفسير كل ما عجزت عن تفسيره نظرية التطور - ولنمهِّد لذلك بالحوار القصير التالي: -

س: كيف بدأت الحياة التي تطورت حتى وصلت مظاهرُها ما نراه الآن؟

ج: ما أسهل الجواب، العناصر البيولوجية المعروفة صادف - نعم صادف - أن اتحدت وبنفس النِّسب المطلوبة، فأحدثت «الشرارة الأولى» للحياة.

س: كلام معقول، لكن لماذا كان اتحاد هذه العناصر بالذات، وبالنسب اللازمة بالذات، لماذا كان هذا يحدث شرارة الحياة؟ ان هذه العناصر كلها «ميتة» سواء أكان الاكسوجين، أو الهايدروجين أو ثاني أوكسيد الكربون، أو الكربون نفسه. فكيف خرجت هذه الحياة من اتحاد عناصر هي نفسها فاقدة الحياة، وفاقد الشيء لا يعطيه؟

ج: الجواب غاية من البساطة، طبيعة هذه العناصر هي أنها إذا اتحدت بالنسب اللازمة يخرج من اتحادها المادي، «المقدس»،

شيء تدب فيه الحياة، ومن قال لك إنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، أما رأيت الاكسوجين والهايدروجين إذا اتحدا بالنسب المعروفة أخرج اتحادهما ماءً زلالاً، هل في الاكسوجين ماء؟ هل في الهايدروجين رطوبة؟ المسألة كلها مسألة طبيعة، طبيعتهما هكذا: إذا اتحدا أعطيا ما يفقدانه، أو ما يفقده كل منهما.

س: تعني أن المسألة كلها ترجع إلى «المصادفة» حينا، وإلى «الطبيعة» حينا آخر؟

ج: نعم، واليهما معا أحياناً أخرى.

س: حسن، ثم ماذا حدث للشرارة الأولى للحياة؟ لماذا لم تنطفىء؟ ألم تكن جميع العوامل «الطبيعية» السائدة في الكون، في ذلك الوقت، تقضي بوأدها في مهدها؟

ج: نعم ولا، - نعم لأن الظروف فعلا كانت كما تقول، و«لا» لأنه صادف - لا تضحك من «صادف» هذه، هذا هو العلم، - صادف أن وجدت هذه الشرارة ظروفاً ملائمة فظلت مشتعلة.

س: ليكن، لكن نجد أن «الشرارة الاولى للحياة» ولنسمها «الخلية البدائية» نجد أن هذه الخلية نمت وتكاثرت... وهنا «نود أن نتساءل ما هي حاجة الكائنات للنمو ما دامت هي حية أما كان لها أن تقنع ببقائها هكذا وحسب[١]».

ج: يا سيدي العزيز طبيعتها تفرض عليها ذلك، واذا لم تعجبك كلمة «الطبيعة» هنا، فقل أنَّ غذاءها الذي تتغذى به من طبيعته، أو من شأنه، أن يجعلها بدينة، ولما كان «للبدانة اضرارها حتى بالنسبة للخلايا نظرا لتغير نسبة سطح الجسم الى

(١) السؤال منقول بنصه من كتاب «طبائع الاحياء» للدكتور ورث وزميله (مترجم) صفحة ٩.

الحجم » نعم لما كان ذلك كذلك « عمدت هذه الخلايا الى شطر اجسامها شطرين[1] ».

س: لماذا لم تتخلص من هذه البدانة بطريقة أخرى؟

ج: الموضوع يرجع الى « طبيعة » هذه الخلايا.

س: حسن لكن الدكتور بروك ورث وزميله قالا في كتابها « طبائع الأحياء » إنَّ الخلية البدائية كانت تقوم بهذه العملية (التبرزية) « على أساس كمِّي فائق الدقة، فتنال كل من الخليتين الوليدتين نصف مكونات الخلية الأم بالضبط، وهكذا أصبحت الخلية الوليدة صورة أو نسخة صادقة من أمها[2] ».

ج: وما الغرابة في ذلك، هكذا كانت « طبيعة » الخلية البدائية... لماذا تضحك؟ أرجوك خذ المسألة مأخذ الجد، انه العلم... العلم الحديث.

س: يحيا العلم، وهل هذه الخلايا الاولى خلايا الحيوان أو خلايا النبات؟

ج: « ان هذه الخلايا الاولى هي أسلاف النبات والحيوان على السواء[3] ».

س: عجب، وكيف استقل كل نوع اذن؟

ج: « يسهل علينا ان نفترض ان النباتات سبقت الحيوانات الى الظهور[4] ».

س: يسهل؟ آه. آسف، نعم يسهل، يسهل.

---

(١) أنظر « طبائع الاحياء » للدكتور بروك ورث وزميله (مؤسسة سجل العرب) صفحة ١٩ و ٢٠.

(٢) أنظر الكتاب المذكور صفحة ٢٠.

(٣) نفس المصدر السابق صفحة ١٦.

(٤) نفس المصدر السابق صفحة ٢٤.

ج: «ويترتب على ذلك أن نتصور، وربما كنا مضللين في هذا التصور...[١]».

س: مضللين؟ من الذي يضللكم؟ الطبيعة مثلاً؟

ج: دع المزح واستمع للعلم، «يترتب على ما تقدم ان الحيوانات الاولى كانت نباتات كسالى فالخلايا النباتية كانت قادرة أصلا على صنع الغذاء من مكوناته الموجودة في بيئتها السائلة حين كانت تمدها الشمس بأشعتها المحملة بالطاقة. أما ما الذي دعا تلك الخلَايا، وكل شيء تمنحه دون مقابل، إلى الابطاء في خطوها، فهذا سؤال ملغزْ لا نعرف له جواباً[٢]».

س: أنا أعرف له جواباً! «الطبيعة» يا صاحبي!

ج: قلت لك دع المزح، فالأمر جد.

س: حسن... ثم ماذا مما تعرف، إذ لا داعي لما لا تعرف في الوقت الحاضر «بطبيعة» الحال!

ج: «القصة - يا سيدي - هي أن بعض الخلايا النباتية نبذت منذ زمان سحيق خصائصها الخضرية عندما اكتشفت أن في إمكانها أن تأكل غيرها من النباتات، حية أو ميتة، ثم أن يأكل بعضها بعضا فيما بعد وهذه هي الخلايا التي أصبحت الحيوانات الاولى...[٣]».

س: الخلية اكتشفت! الخلية تكتشف! يحيا الجهل، آه. آسف. أقصد يحيا العلم. عجبا! وهذه الخلية البدائية، التي تقول عنها، تكاثرت، ثم سلكت كل طائفة منها مسلكاً، ثم تطورت الى ما نراه الآن مما لا يحصر من عالم الحيوان؟

ج: نعم، بل ومن عالم النبات.

---

(١) نفس المصدر السابق صفحة ٢٤.

(٢) و(٣) نفس المصدر السابق صفحة ٢٤و٢٥.

الفصل الثاني

(ب) الطبيعة هل هي اله بديل؟ ولماذا؟

فيما يختص بالطبيعة ترى أن الحوار السابق يعني أن كل هذه الاختلافات التي نشاهدها بين الانسان والحيوان من جانب، وبين كل نوع من أنواع الحيوان من جانب آخر، وبين الحيوانات والنباتات المختلفة... يعني ان كل هذه الاختلافات لا دخل لأي قوة - غير مادية - فيها وانما هي الطبيعة، وليس الا الطبيعة، واذا أشركنا، أدخلنا المصادفة وللمصادفة دخل كبير، في الميدان. خذ الانسان مثلا، هذه الأجهزة المنظمة التي يتكون منها، جهاز الدورة الدموية، الجهاز التنفسي، الجهاز الهضمي، الخ... الخ وكلها يعمل بدقة وبنظام وانسجام تام وتعاون مذهل، ثم هذه العظام، وهذه الأظافر، وهذه الاسنان، وهذا الشعر، كلها على اختلاف أنواعها وطبائعها تجد النمو، وتجد الترميم من بلايين الخلايا التي تنال كل منها نفس النوع من المواد الملائمة التي يتحلل اليها الطعام حين يصل الى المعدة. كل هذه العمليات المعقدة الدقيقة من فعل الطبيعة، والتطور العضوي الطبيعي.

ولنترك الانسان، الى غيره، خذ مثلا سرطان البحر LOBSTER وما شابهه فانه «إذا فقد مخلبا عرف ان جزءا من جسمه قد ضاع، وسارع الى تعويضه باعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة، ومتى تم ذلك كفّت الخلايا عن العمل لأنها تعرف بطريقة ما أن وقت الراحة قد حان[1]» فهل مثل هذا العمل المعقد، وهذا الجهاز العجيب يمكن أن ينسب الى شيء أصم، أبكم، لا عقل له ولا تدبير يسمى الطبيعة. ثم خذ «كثير الأرجل» المائي فانه إذا انقسم الى قسمين استطاع أن يصلح نفسه عن طريق أحد هذين النصفين[2]» بل «أنت اذا قطعت رأس

(١) و(٢) العلم يدعو للايمان - ترجمة محمود صالح الفلكي صفحة ١٢٢ (طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية).

« دودة الطعم » تسارع الى صنع رأس بدلا منه[١] » ولا شك أن هذا كله لا يتأتى الا من عمليات داخلية منظمة، تدار على أسس (هل نسميها) علميّة دقيقة، وأجهزة محكمة متناسقة » هل كل هذا عمل تلقائي محض، اذا نسب الى عامل، فلا ينسب الا الى شيء أصم، أبكم، لا عقل له، ولا تدبير يسمى الطبيعة؟ - « ان البعوضة تضع بيضها في المستنقع... وكل بيضة تأتي الى الوجود مزودة بكيسين للطفو... من أين تعلمت البعوضة قوانين ارشميدس لتزود بيضها بهذه الأكياس الطافية[٢] » وكيف؟ أمن الطبيعة التي تعتبر البعوضة أعلم منها، لأنها على الأقل تتصف بالحياة؟... « وأشجار الصحاري تنتج بذورا مجنحة تطير مع الرياح أميالا، وتنتشر في مساحات واسعة بلا حدود... من أين تعلمت أشجار الصحاري قوانين الحمل الهوائي لتصنع لنفسها هذه البذور المجنحة التي تطير مئات الأميال بحثاً عن أراض ملائمة للإنبات[٢]؟ ». أمن الطبيعة التي لا يُعقَل لها عقل، ولا يحس لها بوجود أليس يعني كل هذا أن هؤلاء الملاحدة « استبدلوا الاله المعروف في الأديان بالاهة - أنثى - أخرى أسموها الطبيعة ونسبوا اليها كل ما للاله الحقيقي من صفات الارادة والتدبير » « كما يقول هوايتلي » في كتابه Introduction to Metaphysics ص ١٣٣.

يقول العلامة « الفرد روش وولاس » في كتابه « عالم الحياة » الذي لخص فيه المؤلف حياته العلمية في مدة ٥٠ (خمسين) سنة « إذا قيل الكائنات فإن « هكل » مؤسس مذهب « الوحدية » (مونيزم) ومن يشابهونه في التفكير انما يقصدون الكائنات المادية ولا يفكرون في الله ولا في الروح. فالكُتّاب أمثالهم يقولون انما المادة والقوة والحياة موجودة من

(١) العلم يدعو للايمان - ترجمة محمود صالح الفلكي صفحة ١٢٢ (طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية).

(٢) و(٣) حوار مع صديقي الملحد للدكتور مصطفى محمود صفحة ١٠١ و١٠٢ (الطبعة الاولى - مطابع روز اليوسف).

الأزل كما نراها اليوم، واحدةً باعتبار الماهية، ومتنوعة باعتبار الشكل، وهذا القول يتراءى لهم أسهل وأبسط وأجدر بأن يكون قولا علميا... ولكن لا صحة لهذا. فإيضاح الكائنات بهذه الصورة لا يطمئن الحاجة التي تزداد كل يوم صراحة لا في صالح القوانين العمياء بل في صالح قدرة فاطرة عاقلة مدبرة تفعل في كل لحظة من الوجود في كل عضوية حية، وانا إذا لم نقبل وجود قدرة فاطرة عالمة مدبرة تكون الحياة شيئاً غير قابل للتصور والإدراك[1] ».

ثم يستطرد فيقول « فالذين يتعقبون ما يدهش ولا يُحْصَى من عجائب عالم الحياة، يرونها منتهية الى سرين عظيمين احدهما عقل الانسان بكل ما فيه من قوة واستعداد وثانيهما تشكل « الحجيرة » بكل قواها الخفية. ففي ازاء هذين اللغزين لا يقنع احد أن يقال له كل شيء موجود من أجل أنه أزلي. والنتيجة التي تجليها التدقيقات الانتقادية لهذا الموضوع كما قال أكابر العلماء الطبيعيين هي وجود بداية لكل شيء غير واجب الوجود المنزه عن كل قيد وشرط. فما رأينا في ذوي الحياة من الحياة والتشكلات ولا سيما تشكل « الحجيرة » والحياة نفسها كل ذلك يرينا الإيمان بقدرة تخلق، وعقل يدبر، ضرورة مطلقة. وهذه الفكرة تكتسب القوة والرجحان عند تدقيق ماهيات العناصر التي تجعل انكشاف الحياة ممكناً[2] ».

وقال في فصل « سر الحجيرة » - « والحجيرة في الحال الحاضر تُعرف بأنها واحد متشكل من مادة ذات حياة تسمى « برتوبلازما » وهي المادة الأساسية التي تتشكل منها حجيرات الحيوانات والنباتات. لكن « الحجيرة » ليست عبارة عن قطعة من بروتوبلازما، وانما هي تَشَكُّل منتظم. فعندئذٍ نجابه بالسؤال التالي « ما الذي ينظم الحجيرة »؟

---

(١) و(٢) والفقرة التي تلي ذلك: أنظر كتاب « موقف العقل والعلم والعالم » للاستاذ مصطفى صبري صفحة ٤٦٥ و٤٦٦ - الجزء الثاني.

فَـ « هوكسله » يقول إنّ الحياة قوة منتظمة. و « كرنر » يعبر عنها بالقدرة الحيوية، و « هكل » يسميه روح الحجيرة، ويعتبره غير شعوري يوجد في كل ذرة عضوية، وفي كل « واحد » مادي روح تماثله. الا أنّ أيا من هذه الأجوبة لا تحل المسألة، ولا يذكر أحد من أولئك المجيبين شيئاً سوى القوة. لكن القوة سبب الحركة في المادة لا سبب تشكل منتظم. وليس ما نبحث عنه هو القوة وحدها بل نبحث عن الذي يدبر ويرشد ويؤلف بين القوى المختلفة الميكانيكية والكيميائية والحيوية، نبحث عن مدبر هذه الماكينة المعضلة للغاية، بتأليف القوى المختلفة وانشاء العضوية الحية التي لا تكتفي بترميم نفسها مدة دوام وجودها الطبيعي، بل تجدد نفسها، وتضاعفها وتنطبق على محيطها المتحول في كل آن، فوقوع هذه الأفعال التي أحصيناها لا يوضح بتَعْبِيرات « الحياة » والقوة الحيوية « وروح الحجيرة غير الشعوري » وانما الذي نبحث عنه هو عقل أكبر وأعلى وأقدر بكثير... وليس هذا العقل لينظم فقط جميع القوى العاملة في العُضويَّات ذات الحياة، بل هو - كما أنه معدن القوى والقدر - معدن جميع القوى الموجودة في جميع الكائنات المادِيَّة أيضاً[1] ».

وإذا كانت « الطبيعة » هي التي تفعل ذلك، وتدبر كل ذلك، وتنظم كل ما هنالك، فهل خرجت حينئذ عن كونها « الاله » الذي تقول به الأديان. وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا يؤمن الملاحدة بالطبيعة، ويكفرون بالله؟ أليست العبرة بالمسميات دون الأسماء؟

يقول « اوليورلوج »«أنه يمكن أن تكون الكائنات تسير على قوانين ميكانيكية كما يقول الماديون فيتفق معهم على ذلك الموحدون من أعاظم علماء الطبيعة مثل « نيوتن » وغيره. وليس القول بارجاع حادثات

---

(١) أنظر كتاب « موقف العقل والعلم والعالم » تأليف المرحوم العلامة مصطفى صبري صفحة ٤٦٦ ج ٢.

الكون بأسرها الى حركات ميكانيكية ينافي وجود الله كما يزعمه الملاحدة فيتمسكون بمبدأ الميكانيكية كأنه عروة الالحاد الوثقى، والفرق بين الفئة الموحدة والملحدة من القائلين بالقوانين الميكانيكية أن الملاحدة يقصرون الأمر على هذا القدر وينكرون ما وراءه، كأنْ يكون لتلك القوانين واضعها ومديرها. والتجربة الدالة على وجود القوانين، لا تدل على عدم وجود من يديرها. بل هي أحرى بأن تدل على وجوده، لأنّ الحركات الميكانيكية لا بد لها من مهندس ميكانيكي ينشىء الماكينة، ويرتبها ويحركها. فقصر الملاحدة الوجود على الماكينة وحركتها ينم على أنهم قاصرون ومقصرون في فهم مدلول التجربة نفيا أو إثباتاً»[١].

وقال «كارو» في كتاب «المذهب المادي والعلم»:

«إنَّ المسيو فلورانس لفت بحق الى المغالاة، لحد أن تجعل الطبيعة التي كانت عبارة عن لفظ تجعل شخصاً موجوداً، فيظن أولا أنّ ذلك من قبيل المجاز والاستعارة، ثم يجعل هذا المجاز والاستعارة فكراً ومذهباً بالتدريج فيعزى إلى الطبيعة الميل والارادة والذوق والانتخاب والترتيب والسعي، فيعظم شأن الطبيعة بين أصحاب الأفكار المادية وتثري بصفات مغتصبة من الله[٢]». ثم قال بعد شرح واف «وهذه التخبطات اللسانية اللامنطقية التي تسفر عن مشكلات المذهب الطبيعي اذيعت وأعلنتْ باسلوب شديد من جانب الكيميائي الشهير «شورول» وقيل بحق «نحن لا نفهم الفكرة الزائفة للذين قالوا بالطبيعة محاولة منهم لاخراج الله والحكمة الالهية من اللغة، ولَبْسِ اللهِ بموجود متصف بالصفات الالهية كالقوة الخالقة، والقوة الحارسة، وكالبصيرة، وربما كالفضل والكرم - والحاصل لبْسه بالذي يتصف بصفات الله، ولا

(١) المصدر السابق - صفحة ٢٩٢.

(٢) و(٣) المصدر السابق - صفحة ٣٨٢ و٣٨٣.

يكون اياه. كلا انَّ الطبيعة ليست بالقدرة الخفية التي يتكلمون عنها، انها الله نفسه، أو عبارة عن صنم موهوم، مجرد عن كلمة وليس لها وجود حقيقي، فيجب أنْ يُفْهَم الأمر هكذا[1] ». وانظر « جوستاف لوبون » - وهو ملحد - كيف يسند هذه الاشياء الى « الطبيعة » رغم ايمانه بأنها توحي بعقل وتدبير، وعلم فوق التصور. يقول في كتابه « الأفكار والعقائد » ص٧٦ - « الافعال الصادرة من خلايا البدن من غير مشاركة أي شعور بها، لا تنطبق أصلا على ضرورة ميكانيكية، بل تتبدّل وتتنوّع حسب الاحتياجات اليومية فترى كأنّها تقع تحت ارشاد عقل اشد اختلافا من عقولنا وآمن من الخطأ على الأكثر » وقال أيضا « الابنية الذروية التي توفقت الى صنعها الخلايا التلسكوبية لا تحتوي على أفضل عمليات دورنا الاستحضارية فقط، مثل التأثر، والتحمض، والارجاع، وغيرها، بل تحتوي أيضا عمليات كثيرة أصعب منها لا نستطيع أن نقلدها (يعني نحن ذوي العقول والإدراك لا نستطيع مجرد تقليدها) إنَّ الخلايا الحيوية تنشىء - بوسائط لا تطوف بأخيلتنا - هذه المركبات المنوعة، أشباه الزلال، التي تلزم لادامة الحياة، و « السلولوزات » والشحوم والمواد النشائية، فهي تعرف ان تحل أثبت جسم مثل « كلوروردوسوديوم » وأنتستخرج الآزوت من أملاح النشادر، والفوسفور من الفوسفات. فجميع هذه الأفعال التامة، والتي وفقت للمقصد توفيقا مدهشا تدار بواسطة قوى لا علم لنا بشأنها وانما تفعل كما إذا كانت مالكة لبصيرة تفوق عقولنا بكثير، والدور الذي تقوم به تلك القوى في كل آنٍ من آنات الموجودية لا يزال ماثلا فوق ما يمكن أن يخرجه أرقى علم من القوة الى الفعل بدرجات... والمسائل المعضلة التي تحلها الخلايا الحقيرة لهذا الموجود الصغير في كل ساعة، لو قَدِرَ أيَّ عالم

(١) المصدر السابق - صفحة ٣٨٢ و٣٨٣.

على حلها بعقله لعُدَّ فوق سائر الناس فواق الاله المعبود لعباده[١] ».

أسمعت مثل هذا المنطق؟ « أفعال تصدر من خلايا البدن، تتبدل وتتنوع حسب الاحتياجات اليومية فترى كأنها تقع تحت ارشاد عقل اشد اختلافا من عقولنا » ومع ذلك يسند « جوستاف لوبون » كل ذلك الى الطبيعة الصماء البكماء العمياء التي لا تبدي ولا تعيد؟

أهناك ما يدعو الى الدهشة والعجب أكثر من هذا التزمُّت؟ خلايا حيوية تنشيء بوسائط لا تطوف باخيلتنا، تنشيء مركبات منوعة تفعل الاعاجيب، كل منها له اختصاصه ودائرته، وكلها تعمل في تناسق تام، ووئام معجز... فمن مركبات الزلال اللازمة لادامة الحياة... الى السلولوزات والشحوم والمواد النشائية... وهي تعرف ان تحل أثبت جسم عندما تدعو الحاجة لذلك، وتعرف كيف تستخرج الازوت من أملاح النشادر، إلى غير ذلك من « الافعال التامة التي وفقت للمقصد توفيقا مدهشاً، وتفعل كل ذلك كما إذا كانت مالكة لبصيرة تفوق عقولنا بكثير، إذ أن « أعمالها التي تقوم بها في كل آن من آنات الموجودية لا يزال ماثلا فوق ما يمكن أن يخرجه أرقى علم »... بل إن « المسائل المعضلة التي تحلها الخلايا الحقيرة في كل ساعة، لا يقدر عليها أي عالم بعقله، ولو فعل لكان كالاله بين الناس »، ومع كل ذلك، وبالرغم من كل ذلك، فالفضل - أولا وآخرا - للطبيعة ولا شيء غير الطبيعة... الطبيعة العاقلة؟ المدركة؟ المنظمة؟ المدبرة؟ المنسقة؟ لا... لا... اذ لو كانت عاقلة مدركة مدبرة منظمة لما كانت غير الاله الذي جاءت به الأديان ودلت عليه العقول، وانما هي اله، أو إلاهة، من نوع آخر، يعمل ما لا يتسطيع أهل العقول عمله، لكن من غير عقل، ويفعل ما لو فعله أحد لكان الها بين الناس، لكن من غير ادراك، ولا بصيرة!

هذا هو منطق الملاحدة، وهذا هو التزمُّت الذي يريدون أن يقنعوا

(١) أنظر « موقف العقل والعلم والعالم » تأليف العلامة الاستاذ مصطفى صبري - ص٤٦٧ الجزء الثاني.

به المؤمنين.

استمع الى الدكتور «بروك ورث BROOKE WORTH» وزميله في طرف من قصة «الولادة» التي يقصانها: «في اللحظة التي يتحد فيها حيوان منوي ببويضة، يظهر الى الوجود كائن جديد. والبيضة وان ظلّت في ظاهر الأمر على حالها لم تتغير - مجرد كرة ضئيلة من البروتوبلازمه - إلا أنها تبدو فجأة وكأنها قد اعتزمت عملا محدد الأهداف[1]» ياللعجب. كرة ضئيلة من البروتوبلازمه تعتزم عملا محدد الأهداف! منْ أوحى لها بهذه الأهداف؟ الطبيعة التي لا تبدي ولا تعيد؟ ثم ما هي هذه الأهداف؟ فربما كانت أهدافاً «ضئيلة» تتناسب و«الكرة» العجيبة الضئيلة! لننظر... ويستمر الدكتور ورث وزميله في القصة: -

«فإذا ما هي انقسمت، يعنيان الكرة إياها، انتجت خليتين متماثلتين من جميع الوجوه، وكذلك الانقسامات القليلة التالية تؤدي إلى تكوين مزيد من الخلايا المتماثلة ولو في أشكالها الظاهرة على الأقل... ثم يأخذ تباين الخلايا في الشكل والحجم والترتيب يزداد وضوحاً حتى تشكل في النهاية جنينا، متميزا، بيّن المعالم ينمو قليلا ليصبح كائنا صغيرا، نفقا (كتكوتا) أو ابا ذنيبه، أو ما يشاء الله له أن يكون... وفي خلال تلك العملية التي تنتج في النهاية كائنا مستقلا تسلك الخلايا مسلكا محددا فائق التنسيق لتنجب في النهاية صغيرا من ذات نوع أبويه. هذا فضلا عن أنها تؤدي واجباتها المفروضة عليها بسرعة فائقة، حتى أن الأعضاء الرئيسية للوليد المرتقب تكون قد تشكلت بالفعل في خلال الفترة القصيرة الأولى من نمو الجنين، والتي تعد بالساعات، أو الأيام، أو الأسابيع وفقا لنوعه ان كان ضفدعة من ضفادع الأشجار أو

(١) أنظر كتابها «طبائع الاحياء» ص٢٠٧ ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي/ محمد (مؤسسة سجل العرب طبعة ١٩٦٣م).

ببغاء أو جملاً[١] ». ويستمر الدكتوران في القصة، وفي ختامها يعدان «الولادة معجزة خارقة[٢] و«لا بد أن وراء ذلك كله قوى مدبرة تتولاه بالرعاية، وقد لا نهتدي أبداً إلى إدراك أسرارها[٣] ». هل هذه القوى المدبرة التي تتولى الجنين في أطواره المختلفة بالرعاية، هل هذه القوى هي الطبيعة؟ وهل الطبيعة مدبرة، وهل عندها عقل يتولى المخلوقات بالرعاية؟ إن كان ذلك كذلك فما الفرق بينها وبين الاله الذي تدعو إليه الأديان، وتدل عليه العقول؟ (الاسئلة هنا موجهة للملاحدة لا للدكتورين المؤلفين، فانها - ان صدقت الترجمة - مؤمنان بالله). ألم يكن الدكتور ادوارد لوتركيل محقا الى أبعد ما تعني هذه الكلمة حين عزا وجود الالحاد عند بعض المشتغلين بالعلوم، لا إلى معطيات العلوم نفسها، ولكن الى أنّ هؤلاء العلماء لم ينظروا «إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق، بنفس روح الامانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به الى نتائج بحوثهم[٤] » كما أنهم في نظره «لم يحرروا عقولهم من سلطان التأثير بعواطفهم وانفعالاتهم[٥] » حيث أنّ «دراسة العلوم بعقل متفتح سوف يقودنا الى ادراك السبب الأول الذي هو الله[٦] ».

وأي عقل حر، متفتح، غير متحيز يقر اقرارا تاماً بالحقائق المذهلة التي تدل على الهدف والحكمة والعقل والتدبير، كما في الأمثلة القليلة السابقة، ثم لا يلبث ان يعزو ذلك الى الطبيعة التي لا تعرف الهدف، ولا تملك ذرة من العقل، فضلا عن كمال التنسيق، وعجيب التنظيم. حقا إنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

ولكي يتضح لك تعنّت الملاحدة، وتزمتهم، واستعباد العاطفة والهوى والتعصب لهم، أفضّل أن أورد لك تحليلا لقطعة، ولنقل من

---

(١) طبائع الاحياء - للدكتور بروك ورث وزميله ص٢٠٧.

(٢) و(٣) نفس المصدر السابق - صفحة ٢٢٠.

(٤) و(٥)و(٦) الله يتجلى في عصر العلم - صفحة ٢٣ فما بعدها وصفحة ٣٠ منه.

كتاب لعالمين جليلين يؤمنان بنظرية التطور الى درجة التقديس والعبادة، كما يؤمنان - فيما يبدو - بالله عز وجل، ولنحاول أنْ نستشف من هذا التحليل السريع «ماهية هذه الطبيعة التي يؤمن بها الملاحدة، وهل تختلف في كثير أو قليل عن الله الذي توصل إليه - بنفس الطريق - العلماء الالهيون، وهل هناك أدنى سبب للايمان بالطبيعة دونه عز وجل... العالمان هما الدكتوران بروك ورث، وروبرت أندرز... والكتاب هو «طبائع الأحياء» (ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي) والقطعة هي ما بين الأقواس[1] في التحليل التالي:

«الديدان الأسطوانية لم يكن لها أية زوائد ولا جهاز. دوري فضلا عن أن جهازها الاخراجي كان ضعيفا، كما أن المجال ظل مفتوحا لادخال كثير من التعديلات المرغوبة على تجاويف أجسامها[2]».

هذا تقرير عام عن حالة الديدان الاسطوانية في مرحلة من مراحل تطورها... مَنْ الذي قوَّم هذه الحالة للديدان؟ وبأي عقل؟ وهذه التعديلات المطلوبة من الذي سيقوم - أو قام - بادخالها؟ وعلى أي أساس «صممت» هذه التعديلات؟ وكيف اهتدى هذا «المصمم» أو «المهندس» إلى أن المجال ظل مفتوحا لادخال هذه التعديلات؟ نترك الإجابة على هذه الأسئلة، ونمضي قدما مع المؤلفيْنِ...

«فقد اقتضى التطور» - لكن التطور نفسه لا يعرف الاقتضاء، فمن اقتضى للتطور - «إنتاج دودة أرض حدث في طريقة تركيبها تعديل جوهري». وعلى منطق الملاحدة كان هذا التعديل الجوهري وهذا التركيب مما ابتكرته الطبيعة بعد الدراسة المضنية والعمل الجاد الدؤب عبر ملايين السنين... والسؤال هو اذا كانت «الطبيعة» تعرف العمل

---

(١) أنظر صفحة ١٢٧ و١٢٨ من الكتاب المشار اليه.

(٢) نحب أن نكرر هنا ما ذكرناه في اواخر الصفحة السابقة من أن كل ما بين الاقواس في هذا المبحث انما هو منقول بنصه وفصه من كتاب طبائع الاحياء ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي.

الجاد الدؤب، فهل تعرف ايضا الدراسة المضنية، أو غير المضنية، وهل تعرف الابتكار؟.

لنمضي قدما مع المؤلفين... «وهو» - أي هذا التعديل الجوهري - «يعكس اتجاها عاما هو التعقيل» وقد اختارت الطبيعة نظام التعقيل هذا بعد أن تبيَّن لها أن ما سواه من الاتجاهات العامة لا يؤدي الى الغرض المحكم المتقن الذي ترمي اليه الطبيعة بـ«طبيعة» الحال.

وكم كان سرور هذه الطبيعة عظيماً حين اكتشفت أن هذا الجهاز قد صمم آية في الدقة والاتقان بحيث «أفادت دودة الأرض منه الى أبعد الحدود». «فقد قسم الجسم «جسم الدودة» بفعل الطبيعة في ملايين السنين «أولا الى عُقَلٍ متتابعة تشبه الحلقات» وكان يمكن ان يقسم، أو يصمم بطريقة أخرى، لكن الطبيعة دائما تختار الأصلح من الطرق، للأصلح من الكائنات - «ثم جهزت كل حلقة بأربعة أزواج من الشوك» - وكان هذا العدد - اربعة - هو أجدى عدد يحكم التعديل الجديد، ولما كانت الدودة تعيش على التربة، وتحفرها، أو تضطر لحفرها، فقد «زودت هذه الأشواك بعضلات» صممتها الطبيعة بحيث «تدفع الدودة أماما وخلفاً حتى تستطيع الدودة بتثبيتها في جدران الأنفاق أن تتحرك في أثناء حفرها للتربة» سبحان هذه الطبيعة. وما أعظم شأنها وما أسمى حكمتها. وما أعظم رأفتها بالمخلوقين - أستغفر الله - بالكائنات.

ثم ماذا؟

ثم رأت الطبيعة - جلت وعلت - أنّ من الضروري أن تنظم حركة هذه العضلات بأعصاب موزعة بنظام التعقيل أيضاً ولكن هل يكفي ذلك؟ - أثبتت الدراسات المضنية التي أجرتها هذه الطبيعة عبر الملايين من السنين في الديدان وفي اخواتها الأقربين من أسلاف الملاحدة

أثبتت هذه الدراسة أن نجاح هذه العملية المطلوبة « يستلزم وجود مخ مركزي لينسق اعمالها المختلفة » وقد كان!.

برافو أيتها الطبيعة...

ولكن يظهر أن الطبيعة حتى هذه اللحظة لم تنجح النجاح المطلوب... فقد « دعت الحاجة الى إضافة عضلات جديدة لتحدث انقباض الدودة وانبساطها » وكان هذا امراً معضلا حقاً، لكنه ضروري، وبدونه لا تصلح الديدان للبقاء وبمرور الزمن الطويل، نجحت الطبيعة فيما يبدو، فقد « أعدَّت لهذا الغرض مجموعتين من العضلات » حيث أن أي زيادة على هذا العدد، أو أي نقص، يخل من كفاءة الجهاز الجديد.

ورأت الطبيعة بعد التجارب المريرة عبر ملايين السنين أن تكون هناك « مجموعة طولية كتلك الموجودة في الديدان الاسطوانية وأخرى دائرية جديدة » – ولكن طرأت مشكلة جديدة فقد « تطلبت هذه الأنسجة جميعها مورداً وافر من الدم » – مسكينة هذه الطبيعة كلما حلّت مشكلة وقعت في أخرى. الا أنها على كل حال ما لبثت أن « ابتكرت جهازاً من الأوعية الدموية » اقتضى الابتكار الحديث ان يكون « مقفلاً » كما ابتكرت أيضا « صبغاً دموياً ذائباً قادراً » – بحكم طبيعته – « على الاتحاد بالاوكسجين ». وقد وضعت الطبيعة الترتيبات اللازمة لأن يكون ذلك الاتحاد بالأكسجين « اتحاد سريعا » بحيث يقتصد من كمية السائل التي يلزم دفعها في جهاز الأنابيب التي صممتها الطبيعة خصيصا لهذا الغرض ولكن ذلك تطلب بدوره توزيع عدد من القلوب « لا توزيعا عشوائيا » كما ينتظر أمثالنا من هذه الطبيعة وانما ينبغي أن تكون « في مواضع » أولا « استراتيجية » بالمعنى وثانيا، « مختارة » اختيارا مقصودا هادفاً، لا عشوائياً... وابتسمت الطبيعة ابتسامة الرضا حين نجحت هذه القلوب في « دفع الدم وفيرا الى الجلد الرطب » بقصد « التهوية » التي رأت الطبيعة انها ضرورية للغاية له، ثم

إلى «الأنسجة الجائعة المتعطشة» التي رأت الطبيعة - جلت وعلت وتباركت - أن تكفل لها حاجتها من الماء والغذاء كلما أحست هذه الأنسجة بالحاجة الى ذلك.

من هذا التحليل الخاطف يتضح لك أن الملاحدة لم يثنهم عن الايمان بالله نور من العلم ولا حجة من المنطق، وانما هو محض الهوى ومحض التعصب، ومن يضلل الله فما له من سبيل. وخلاصة القول ان نتائج الدراسات في علم الأحياء (الذي يعتمد عليه داروِن في نظريته) أثبتت أن هناك أفعالا متشابكة، منسقة، منظمة، هادفة يعجز أعظم عقل بشري، ويقصر أرقى علم انساني، عن أن يفهم - فضلا عن أن يوجد القوانين اللازمة والظروف الملائمة لصدور هذه الأفعال... في هذا يستوي الملاحدة والمؤمنون[1] وبهذا يقول كل من أولاء واولئك، الاختلاف الوحيد هو أن الملاحدة يعزون كل ذلك الى إلاهة - انثى - أسموها الطبيعة، وفسروها بما شاؤا من الألفاظ.. في حين أن المؤمنين رأوا أن الطبيعة، كما يقول العلامة الامريكي سيسل، «لا تستطيع ان تفسر شيئا، وانما هي بحاجة الى تفسير[2]»... كما أنهم فهموا من معطيات العلم والعقل والمنطق جميعا ان الطبيعة، حتى لو استساغ العقل أن يؤمن بوجودها أو ان ينسب اليها مثل هذه الخوارق والمعجزات التي تبدو حتى من الخلايا الحقيرة الضئيلة، فإنه لن يتردد - إذا تحرر - في أن يؤمن بإلهٍ قادرٍ، عليم، حكيم أضفى على «الطبيعة» هذه الصفات وخولها هذه «الصلاحيات» حتى تستطيع بقدرته وتوجيهه أن تنظم هذه العوالم المعقدة، وأن تدير هذه العمليات الشائكة، التي تنتظم في كل شيء، وتتجلى في كل شيء. وقد أثبتت

(١) راجع ما أوردناه آنفاً من أقوال جوستاف لوبون - على سبيل المثال.

(٢) الاسلام يتحدى ص٣٢ نقلا عن كتاب The Evidence Of God. تأليف العالم الامريكاني سيسل صفحة ٢٢١.

الدراسات المستفيضة التي أجراها العلماء من أمثال برجسون BERGSON- مهما كانت صورة الاله الذي يؤمن به[1] - في عالم الحشرات والحيوان والنبات، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الأسس «المكانيكية» - التلقائية - لا تصلح اطلاقا لأن تكون التفسير المقبول لما يتجلى في عالم «الأحياء» من الظواهر والخوارق، والمعجزات[2].

ولعل في هذا ما يكفي لتحطيم «الصنم» الذي يؤمن به الملاحدة دون الله وهو صنم الطبيعة... بقي هناك صنم آخر - كما أشرنا سابقا - لا يقل اهمية عن هذا، هو «المصادفة» ولنستمع الى كلمة العلم الحرة فيه.

---

(١) يرى الشيخ نديم الجسر أن برجسون كان مؤمناً بالله (أنظر كتاب قصة الايمان الصفحات ١٧٤ الى ١٧٩).

(٢) أنظر مثلاً كتاب Recovery Of Belief للعلامة جود صفحة ٥٤٣.

الفصل الثالث

المصادفة

ترتبط نظرية التطور (الدارونية) ارتباطاً وثيقاً بالمصادفة، «فالنظرية الدارونية آلية بحت تستبعد كل غائية، وتعتمد على محض الاتفاق والصدفة في حياة الحيوان والنبات[1]».

ومما قَوَّى من مكانة «المصادفة» في عالم الالحاد ما تلقاه من الأهمية في «حساب الاحتمالات» ذلك العلم المعروف الذي يُكوِّن العمود الفقري لمختلف نظم التأمين التي تكوِّن بدورها إحدى الركائز التي يقوم عليها الاقتصاد في العالم الحديث... ولما كان كثير من المثقفين فضلا عن العوام - لا يدور بخلدهم ولا تستسيغ عقولهم أن تكون للمصادفة قوانين، أو أن تكون لها في العلم دولة، رأينا أن نستشهد برأي عالمين كبيرين في هذا الموضوع:

الكلمة الآن للدكتور فرانكلي ألن:

«إن قوانين المصادفة والإحتمال لها من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق، وتضع هذه القوانين أمامنا الحكم الأقرب الى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم... ولقد تقدَّمت دراسة قوانين المصادفة والإحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث

---

(١) أنظر تاريخ الفلسفة للاستاذ يوسف كرم ص٣٥٢/٣٥٣ طبعة دار المعارف.

بعض الظواهر التي نقول انها تحدث بالمصادفة والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى. وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة[1] ».

ونستمع لليكونت دينوي: «أن قوانين المصادفة قدمت وسوف تقدم دوما خدمات جليلة للعلم ولن يمكن الاستغناء عنها[2] ».

إذنْ فللمصادفة في ميدان العلم صولة، ولها عند أرباب العقول دولة، أيّ دولة، ولها قوانين محددة يعرف بها ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة وما لا يمكن، فلننظر، والحالة هذه، إلى دورها في الخلق والتكوين هل هو سلبي او ايجابي؟ هل الخلق والتكوين مما يدخل في دائرة اختصاصها وعمل قوانينها، أو هو شيىء لا دخل للمصادفة فيه، ولا لقوانينها فيه مجال؟

الكلمة للعلامة كريسي مورسون CRESSY MORRISON (رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك) في كتابه «MAN DOES NOT STAND ALONE» او كما ترجمه الاستاذ محمود صالح الفلكي - « العلم يدعو للإيمان ». «أن الاوكسوجين، والهايدروجين، وثاني أكسيد الكربون، والكربون، سواء كانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة مع بعضها هي العناصر البيولوجية، وهي عين الأساس الذي تقوم عليه الحياة، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضي بأن تكون كلها، في وقت واحد، وفي كوكب سيار واحد، بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة، وليس لدى العلم ايضاح لهذه الحقائق، أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية[3] ».

---

(١) انظر «الله يتجلى في عصر العلم» صفحة ١١.

(٢) أنظر كتاب «مصير البشرية» ترجمة/ احمد عزت وعصام أحمد صفحة ٤٣.

(٣) العلم يدعو للايمان - ترجمه محمود صالح الفلكي - صفحة ٧١.

« في الاستطاعة (والكلمة هنا ما زالت للعلامة مورسون)... في الاستطاعة أن نشير الى شيء حدث منذ زمن بعيد عند بدء الحياة على الأرض، وكان له شأن عظيم، ذلك أن خلية واحدة قد نمت عندها القدرة المدهشة على استخدام ضوء الشمس في حل مركب كيموي، واصطناع غذاء لها ولأخوتها من الخلايا، ولا بد أن لدات اخريات لخلية اصيلة أخرى قد عاشت على الغذاء الذي أنتجته الأولى وأصبحت حيوانا، في حين صارت الخلية الأولى نباتا، فهل يمكننا أن نعتقد أن كون خلية قد أصبحت حيوانا، وأخرى قد أصبحت نباتا، انما حدث بطريق المصادفة[١] » - يعني هل في العلم، أو في المنطق ما يحملنا على هذا الاعتقاد... ويستطرد العلامة مورسون فيقول « وإذا نظرنا الى حجم الكرة الأرضية ومكانها في الفضاء، وبراعة التنظيمات فإن فرصة حصول بعض هذه التنظيمات مصادفة هي بنسبة واحد الى مليون، وفرصة حدوثها كلها معا لا يمكن حسابها، حتى بالنسبة للبلايين، وعلى ذلك فإن وجود هذه الحقائق لا يمكن التوفيق بينه وبين أي قانون من قوانين المصادفة[٢] » - ثم يلخص الاستاذ مورسون كلامه فيقول:

« أن المتفق عليه عموما هو أنه لا البيئة وحدها، ولا المادة، مهما كانت موائمة للحياة، ولا أي اتفاق في الظروف الكيموية قد تخلقه المصادفة يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود[٣] ».

ثم يأتي دور العلامة ليكونت دينوي الذي « كان رئيساً لقسم الفيزياء في معهد باستور، ورئيساً لقسم الفلسفة في السوربون، وتبوأ أكبر المراكز العلمية في أمريكا وحاز على جوائز علمية عديدة جعلته أحد اعلام

(١) نفس المصدر السابق - صفحة ٨٩ (أي العلم يدعو للايمان)
(٢) نفس المصدر السابق - صفحة ١٨٦.
(٣) نفس المصدر السابق - صفحة ٩٥.

هذا العصر[١] » فماذا، يا ترى، سيقول؟

دينوي يتكلم... « سنرى أن هذه الفرضية (يعني إلقاء الأمر على عاتق المصادفة) فرضية غير مقنعة، وأنها تؤدي إلى متناقضات خطيرة لم تعالج حتى الآن[٢] » - لعله يشير إلى ما قاله « كانط من أن » أول امارة حقّيّة أي معرفة كونها سالمة من التناقض » ومعنى هذا أن هذه « الفرضية » فقدت اول علامة من العلامات التي من شأنها - مجتمعة - أن تضعها في مصاف الحقائق. وبذلك أصبحت من الخرافة والأباطيل. ويستطرد دينوي فيقول « أن قوانين المصادفة قدمت، وسوف تقدم، دوما خدمات جليلة للعلم، ولن يمكن الاستغناء عنها... أما الشيء الذي لا يمكن لهذه القوانين أن تفسره، فهو أن خصائص الخلية تتوالد نتيجة لترابط معقد، وليس عن اختلاط مشوش كما هو الحال في خليط الغازات، فهذا الترابط المستمر القابل للتحويل الوراثي لا تشمله قوانين المصادفة[٣] ».

ويسترسل « دينوي » في الحديث « إن تفسير تطور الحياة بمجرد المصادفة لا يجد تأييداً في الوقت الحاضر، فهو لا يسمح بضم الانسان وفعاليته النفسية في إطار عام، ولا يفسر التطور التصاعدي لأشكال الحياة، بل أنه ينكر هذا الانتشار[٤] »... « أننا سنقوم في هذا الفصل بحساب الاحتمالات لكي ندرك رياضيا استحالة تفسير ولادة الحياة بالمصادفة[٥] »... « فالمصادفة وحدها كما أشرنا سابقاً عاجزة تماما عن توضيح الظواهر التطورية الانعكاسية[٦] ».

---

(١) مقدمة كتاب مصير البشرية للمترجين الاستاذين أحمد عزت وعصام أحمد طه.
(٢) المصدر السابق - صفحة ١٤ و١٥.
(٣) مصير البشرية (مترجم) صفحة ٤٣.
(٤) أنظر مصير البشرية صفحة ٤٧.
(٥) المصدر السابق صفحة ٣٤.
(٦) المصدر السابق صفحة ٨٢.

هذا ويستخلص «ليكونت دينوي» من البحث المستفيض الذي أجراه، أننا «لإيجاد جزيء بروتيني واحد عن طريق المصادفة سوف نحتاج الى كون يسير الضوء في دائرته $١٠^{٨٢}$ (أي ٨٢ صفرا على جانب عشرة) سنين ضوئية؛ وهذا الحجم أكبر بكثير جدا من حجم الضوء الموجود فعلا في كوننا الحالي حيث أن ضوء أبعد مجموعة للنجوم في الكون يصل الينا في بضعة ملايين من السنين الضوئية فقط...» ويمضي فيقول:

«وبعد أن نوجد هذا الكون المستحيل، لا بد أن نحرك المادة المفترضة في هذا الكون المفترض بسرعة خمسمائة (ترليون) حركة في الثانية الواحدة لمدة $١٠^{٣٤٣}$ - بليون سنة (٣٤٣ صفراً أمام عشرة بلايين) علماً بأن الأرض لم توجد الا منذ بليونين من السنين، وان الحياة في أي صورة من الصور لم توجد الا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض[١]».

من كل ما تقدم نستخلص أن نظرية التطور في اعتمادها على المصادفة من الناحية «الحسابية» Mathematical «المحض» انما هي كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه.

تبقى ناحية الهدف والغاية والنظام، وهي الناحية التي تجتث المصادفة من جذورها، وتقوضها من أركانها، والملاحدة حين «يؤمنون» بالمصادفة، فانهم لا يعدون أن يجعلوا منها إلها كالطبيعة ينسبون إليه - شاؤا أم أبوا - كل صفات الارادة والحكمة والتدبير التي يصف بها المؤمنون الله عز وجل... فيبقى المُسَمَّى - والحالة هذه - واحدا، وان اختلفت أسماؤه عند هؤلاء وأولئك، والعبرة ليست بالأسماء وانما بالمسمّيات.

---

(١) ملخص مما نقله الاستاذ وحيد الدين خان من كتاب .Human Destiny للعلامة دينوى. انظر الاسلام يتحدى صفحة ٧٦.

والسؤال هو: هل اعترف العلماء بوجود الغاية والهدف والنظام في الكائنات؟

يقول العلامة «كريس مورسون» (رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك):

«ويبدو أنّ الغاية جوهرية في جميع الأشياء، من القوانين التي تحكم الكون إلى تركيبات الذرة التي تدعم حياتنا[١]».

ويقول الدكتور جون أدولف بوهلر «إن الانسان يشاهد التنظيم والابداع حيثما ولّى وجهه في نواحي هذا الكون... ويبدو أن هذا الكون يسير نحو هدف معين كما يدل على ذلك النظام الذي نشاهده في الذرات[٢]...»

ويقول الدكتور ادوارد هارتمان الفيلسوف الألماني الكبير في كتابه «المذهب الداروني - صفحة ١٥١ من الطبعة الفرنسية ما مؤداه «كان المذهب المادي قد أنكر قبل دارون وجود النظام في الطبيعة، رغما عن المشاهدات، ولكن المذهب الداروني أعاد الاعتراف بوجود ذلك النظام إلاّ أنه تخيّل تعليله بأنه نتيجة الأدوار الميكانيكية المحضة[٣]» إلى أن يقول «وبعبارة أخرى، إن القصد يقتضي الميكانيكية، فإنه يستحيل بدونها، كما يستحيل وجود الميكانيكية بدون القصد، فإذا تقررت نظرية الميكانيكية على إطلاقها، تحققت معها نظرية القصد على إطلاقها كذلك، وإذا تحققت نظرية القصد على إطلاقها، تحققت نظرية الميكانيكية كذلك، وأن رأي عدم وجود القصد عند الدارونيين من المسلمات التي لا يقوم عليها دليل، ومن الأوهام التي لا أساس لها[٤]»

ولقد سخر «هوايتهد» ممن ينكرون وجود الغايات في النظم الكونية سخرية لاذعة حيث يقول:

---

(١) أنظر «العلم يدعو للايمان» «مترجم صفحة ١٣٤.

(٢) أنظر «الله يتجلى في عصر العلم» صفحة ١٠٣.

(٣) و(٤) أنظر كتاب «على أطلال المذهب المادي» الجزء الاول صفحة ١٠٤ و١٠٥.

(إن العلماء الذين ينحصر هدفهم في البرهنة على عدم وجود هدف لوجودهم يُعَتَبُرونَ هم أنفسهم موضوعا جديرا بالدراسة[١]).

ويقول «كامبل فلاماريون» في كتابه «الله في الطبيعة» بعد كلام طويل: -

«ليس كلامي هذا من جملة عقائد ما بعد الطبيعة المشكوك في صحتها بل من النتائج القاطعة التي استنبطت من تلك القواعد الثابتة للعلم كنسبة الحركة، وقدم القوانين، ان النظام الحاكم في الطبيعة وآثار الحكمة المشهودة في تكوين كل شيء، والحكمة البالغة المبسوطة المنتشرة كضياء الفجر والشفق في الهيئة العامة... الخ الخ[٢]».

ويقول العلامة جود: -

«ما أكثر ما أُخِذَ العلماء بعظمة الطبيعة، واطراد قوانينها المدهش[٣]» ولا يمكن ولا يعقل أن تتأتي القوانين المطردة من محض المصادفة، وهذا ما يؤكده هنري بوانكاري - وهو من أكبر الرياضيين المتأخرين وأشهرهم - حيث يقول «ان فى هذا العالم انتظاماً واتزاناً لا يمكن ان يحمل على المصادفة[٤]» ويقول «شاد فالش» CHADVLSH «إن من الممكن ان نسأل أي رجل - مؤمنا بالله كان، أو منكراً له - كيف يمكن ان يكون هذا التوازن، الذي في الكون، في صالحه إذا كان الكون قد وُجد بمحض المصادفة[٥]»؟.

ويقول العلامة الأمريكي «فرانكلين» وهو من المتخصصين في علم الحيوان في كتابه «سير التطور البشري» «أن تطور الإنسان من غير

---

(١) أنظر صفحة ٩٠ - المنطق الحديث ومناهج البحث.

(٢) أنظر كتاب «الدين والعلم» للاستاذ/ أحمد عزت - صفحة ٣٥ و٣٦.

(٣) أنظر كتاب Recovery Of Belief للعلامة الفيلسوف «جود» صفحة ١١٠.

(٤) أنظر «الدين والعلم» للاستاذ/ أحمد عزت صفحة ٣٥ و٣٦.

(٥) أنظر «الاسلام يتحدى» تأليف وحيد الدين خان - صفحة ٦٢ نقلا عن كتاب The Evidence Of God صفحة ٨٨.

استمداد من قوة معنوية، وتقدمه في الطريق المرسوم للرقي من الحيوانية إلى الإنسانية ليستحيل كما يستحيل في مطبعة جمع كتاب من تمثيليات شكسبير بالقاء الحروف من دون تفكير، وليس من شك في أن التطور أوجد الإنسان لا من المصادفات البحتة، بل هو تطور كانت فيه من أوله الى آخره يد الله القادر المتعال[١] ».

ويقول الدكتور « ايرفنج وليام » استاذ العلوم الطبيعية بجامعة « ميتشجان » أن العلم لا يستطيع ان يفسر لنا كيف تتجمع تلك الدقائق المتناهية في الصغر والتي تتكون منها جميع الأشياء، كما لا يستطيع أن يفسر لنا كيف تتجمع تلك الدقائق لتنتج الحياة الا بالاعتماد على فكرة المصادفة، وهي فكرة لا تتفق مع العلم... ان دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أكثر الدراسات اظهاراً لقدرة الله[٢] ».

ويقول العالم الكبير المعاصر « ديل سوارتزن درووير » كيف نفسر نظام الكون والابداع الذي يتجلى فيه؟ هنا طريقان: إما ان يكون الكون قد حدث بطريق المصادفة وهو ما لا يتفق مع المنطق والتجربة ولا مع قوانين (الديناميكا) الحرارية التي اكتشفها العلم الحديث، واما ان يكون هذا النظام قد وضع بتفكير وتدبير وتصميم وحكمة وهو الرأي الذي يقبله العلم. أما ما وصلنا اليه من التفسيرات العلمية الأخرى فهي ليست ثابتة، وليس لها صفة الاطلاق[٣] ».

هذا غيض من فيض من أقوال علماء يعدون في الطليعة.

وهكذا يهوي الصرح الهش الذي لفقه الملاحدة لدولة المصادفة العاطلة، كما هوى قبله عرش الطبيعة الصماء البكماء...

وبهذا يتضح ان الضجة العارمة التي يتشدق بها الالحاد باسم العلم،

---

(١) أنظر كتاب « الدين والعلم » للاستاذ/ أحمد عزت صفحة ٢٠٨.

(٢) و (٣) أنظر كتاب الله والدمار لدولة سعد جمعه - ص٢٣٦ (دار الكتاب العربي).

ما هي الا جعجعة من غير طحن، وقيامة من الأوهام الفاسدة والتخرصات التي تستند على الشُّبَه لا على الحجج، وتقوم على السراب الخادع لا على الماء الزلال...

يقول «ديكارت» ليس علم الملحد علما حقاً لأن المعرفة المشوبة بِشُبْهَةٍ لا يحق لها أن تسمى علماً[1].

ويقول «و.س.ث.وون» من أكبر علماء الانجليزية المنطقيين ان الالحاد ليس نتيجة للأصول العلمية[2] ».

ويذكر توماس هانري هوكسلي» من أشهر علماء الانجليز «ان الالحاد على الأسس العلمية غير قابل للتحمل[3] » وقال العالم الفرنسي مؤلف «المطالب والمذاهب ص١٤٩ «كون الماديين في زعمهم أنهم يتكلمون بأسم العلم تَوَهُّم[4] ».

لقد كانت البداهة - قبل العلم - تقول ان هناك خالقا لهذا الكون «واذا قالت البداهة نعم هناك اله، فهذا القول له قيمة في النظر الانساني لا يقل عن قيمة المنطق والقياس، لأنها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند غير سنده[5] ».

ولما جاء العلم، أكد ما تقول به البداهة، فقد أصبح من المعلوم بالضرورة أن القانون الثاني للديناميكا الحرارية SECOND LAW OF THERMO DYNAMICS يجتث الفكرة القائلة بأزلية الكون من جذورها، وينسف كل أساس كانت تعتمد عليه نسفا... وإذا اطرحنا جانبا تلك الزوبعة التي أثارها «هيوم» حول مبدأ السببية CAUSE

---

(١) أنظر موقف العقل والعلم والعالم «العلامة - مصطفى صبري صفحة ٢٢٢ ج٣.

(٢) و(٣) المصدر السابق صفحة - ٢٧٦ و٢٧٧.

(٤) المصدر السابق صفحة ٢٧٨.

(٥) «الله» للعلامة - البحر الذي لا ساحل له - المرحوم - عباس محود العقاد صفحة ٢١٢.

AND EFFECT فـــإن العـــلم التجربي لا يقوم، ولا يمكن أن يقوم الا عليه، رغم رفض هيوم ومن لف لفه لهذا المبدأ - وإذا ثبت في ميدان العلم، أن الكون له بداية، لزم أن يكون له سبب، أو موجـد وهو الله عز وجل... و«أن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ قانون السببية فبدونه تنعدم جميع الأشياء الحية، والعقل البشري لا يستطيع ان يعمل الا على أساس السببية وقد سمعت بعض رجال العلم يقولون ان السببية تنتهي حيث تبدأ الميتافيزيا أو مبادىء التفكير، ولكني لا أوافق على أن يستخدم الانسان هذا القانون في المواطن التي تعجبه، ثم يرفض استخدامه عندما يخشى النتائج التي توصله إليها... واضافة حلقة ميتافيزيائية جديدة الى سلسلة السببية لا تعتبر تعارضا مع المنطق فنحن نفعل ذلك في ميدان العلوم، وفي مستوى حياتنا اليومية(١) ».

ويقول «أن أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول بأن الله موجود، كما أن أحداً لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول بأن الله غير موجود... وقد ينكر منكر وجود الله، لكنه لا يستطيع أن يؤيد انكاره بدليل... أنني لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلاً عقلياً (يعني يمكن الإعتماد عليه) على عدم وجوده تعالى(٢) ».

ولذلك كان الفيلسوف «بركلي» على حق حين قال «التحقق من ادراك وجود الله لأكبر جداً من تحقق وجود الانسان(٣) » ومما قاله ديكارت في هذا الصدد «أن وجود الله يقيني أكثر من يقينية النظرية الهندسية(٤) » ولعل «ليبنتز» ذهب إلى أبعد من هذا حين أكد أنه «لولا الله ما تأسست الهندسة(٥) ».

---

(١) أنظر مقالة العلامة «اندروكونواي ايفى» من ذوي الشهرة العالمية في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» صفحة ١٥٤.

(٢) المصدر نفسه - صفحة ١٤٧.

(٣) أنظر كتاب «الله» للمرحوم العقاد - صفحة ٢١٢.

(٤) و(٥) أنظر «موقف العقل والعلم والعالم» للمرحوم - مصطفى صبري صفحة ٢٣٦ الجزء الثاني.

وكلام «العلماء» - المؤمنين - في هذا الصدد لا ينتهي.

قد تقول إذا كانت المسألة بهذه البساطة، وبهذا الوضوح فلماذا ما زلنا نجد بين العلماء من يفسرون نظرية التطور العضوي تفسيراً مادياً، ويصرون عليه، ولا يقبلون سواه تفسيراً ولا يبغون عنه متحولا... صحيح أنهم أقل في العدد، وأدنى في المكانة العلمية، اذا قيسوا بغيرهم من العلماء المؤمنين، الا أنهم علماء على كل حال، ولا بد أن يكون لهم مستند، أو على الأقل مبرر يتعللون به فيما جنحوا اليه من الكفر والالحاد...

هناك عدة أسباب، منها ما يمكن أن نسميه النفسي، ومنها غير النفسي... فمن الأسباب النفسية:

قرأت في كتاب[1] «We Believe in God» الذي الفه لفيف من العلماء، أن عقليَّة الملحد بطبيعتها ملتوية، بطبيعتها نزاعة إلى التفسير المادي والالحاد، بطبيعتها تنفر من الإيمان. وليس من شأني - ولا من قدري- أن أُعَلق،من الناحية العملية على هذه المسألة وان كان العلم لا يستطيع - لم يستطع على الأقل حتى الآن - بل ولن يستطيع ان تكون له كلمة فيها باعتبارها مسألة غيبية خارجة عن نطاق اختصاصه، الا أنها من الناحية الدينية، تتناقض مع أحد مبادىء الاسلام التي تنادي أن «كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه. أو يمجسانه»... والدراسات الإجتماعية تؤيد منطق الاسلام في ذلك. وعليه فإذا كان في عقول عدد - قل أم كثر - من الغربيين، ما يميل بهم الى الالحاد، وينأى بهم عن «الايمان» فإن ذلك يرجع، فيما يرجع اليه لا إلى طبيعة هذه العقول، ولكن الى التربية الدينية التي يتلقونها وهم صغار والتي تتعارض مع ما يتلقونه من العلم في المدارس، وما يتعرفون عليه من الأمور في الحياة.

«ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية» - كما يقول الدكتور

(١) هذا الكتاب. موجود بمكتبة جامعة الملك عبدالعزيز بجده.

لندبرج[١] - «تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في اله هو على صورة الانسان، بدلا من الاعتقاد بأن الانسان قد خلق خليفة الله على الأرض. وعندما تنمو العقول بعد ذلك، وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير، أو مع أي منطق مقبول... وأخيراً عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة» الله «كلية. وعندما يصلون الى هذه المرحلة، ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين وما ترتب عليه من نتائج نفسية، لا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع وتدور حول وجود الله[٢] ولعل هذا ما حدا السير جينز - العالم البريطاني المشهور - على القول «بأن في عقولنا الجديدة تعصبا يرجح التفسير المادي للحقائق[٣]».

وقد مر بك أن الدكتور «لوثركيل» يعزو وجود الالحاد عند بعض المشتغلين بالعلوم لا إلى معطيات العلوم نفسها، ولكن لأنهم لم ينظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم[٤] كما أنهم «لم يحرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم[٥]» كما يؤكد هذا العلامة - شأنه في ذلك شأن الكثيرين - «أن دراسة العلوم بعقل متفتح سوف يقودنا دون شك الى إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله[٦]».

---

(١) هو الدكتور/ وولتر أوسكار لندبرج عالم الفسيولوجيا والكيمياء وصاحب البحوث العلمية الكثيرة.
(٢) «الله يتجلى في عصر العلم» صفحة ٣٤.
(٣) أنظر «الاسلام يتحدى صفحة ٤٢ نقلا عن The Mysterious Universe صفحة ١٨٩.
(٤) و(٥)و(٦) أنظر الله يتجلى في عصر العلم صفحة ٢٣ فما بعدها وصفحة ٣٠.

والأمثلة التي تؤيد الدكتور «لوثركيل» من واقع العلماء كثيرة:

«فقد ذكر «ويتكر شامبرز» في كتابه الشهادة Witness حادثا كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول في حياته، ذكر أنه بينما كان ينظر الى ابنته الصغيرة استلفت اذناها نظره فاخذ يفكر في أنه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الأذن بمحض الاتفاق والمصادفة بل لا بد أنه وُجِدَ نتيجة ارادة مدبرة. لكن «ويتكر شامبرز» طرد هذه الوسوسة عن قلبه حتى لا يضطر أن يؤمن منطقيا بالذات التي أرادت فدبرت، لأن ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة... ويقول الاستاذ الدكتور «تامس ديوباركس» بعد أن يذكر هذا الحادث (انني أعرف عددا كبيرا من أساتذتي في الجامعة، ومن رفقائي العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية في المعامل[١])».

هذا ما كان من أمر العامل النفساني.

أما العوامل الأخرى - غير النفسانية - والتي شجعت الملاحدة على الاستمرار في التفسير المادي البحت للنظرية الدارونية، والاصرار على الاتجاه الالحادي رغم وضوح الحقائق، هذه العوامل كثيرة أهمها:

(١) الديانة المسيحية - المحرفة - نفسها، ومن المفارقات أن يترعرع الالحاد في أحضان دين، وأن ينبت الكفر في تربة رواها دم ابن «الله[٢]».

(٢) عامل الشر، وهو المشكلة الابدية التي تحطمت على صخرتها العاتية كل المحاولات.

(٣) علم «الأديان المقارنة».

(١) أنظر كتاب «الاسلام يتحدى» صفحة ٤٢ نقلاً عن كتاب The Evidence Of God صفحة ٧٣ - ٧٤.

(٢) ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

الباب الرابع

العوامل التي ساعدت ...

الفصل الأول

العوامل التي ساعدت على التفسير المادي لنظرية التطور العضوي

اولا: عامل الشر: -

والمعْنِيُّ بالشر هنا، هذه الكوارث والمصائب التي تتعرض لها الكائنات الحية، أفراداً، وجماعات، سواء في شكل أوبئة فتاكة، أو زلازل مفزعة، أو أمراض عنيدة، والتي لا تفرق بين مسن، وصغير، أو بين حيوان وانسان...

وبطبيعة الحال لا يدخل مبحث الشر في دائرة العلم، لأن موضوع، الشر ينحصر في «لماذا»؟ بينما ميدان العلم لا يخرج عن «كيف»؟ يقول الفيلسوف العلامة الغني عن التعريف سي،ام،جود:

«أن العلم حين يصف لنا الظواهر الطبيعية يجيب لنا عن كيف تحدث هذه الظواهر اما لماذا تحدث فهذا ما لا يدخل في دائرته[1]».

ولقد تناولت الفلسفة موضوع الشر من قديم الزمان:

نظر بعض الفلاسفة - الالهيين - إلى معطيات أفكارهم عن الله تعالى ورحمته فظنوا أن الشر يتنافى مع مقتضيات الرحمة، فأنكروا الشر، وهو أمر يتحدى الواقع.

ونظر الفلاسفة الماديون الى الشر باعتباره واقعة لا تقبل الجدل،

---

(١) Recovery Of Belief للعلامة - جود - صفحة ٧٨.

وأمر لا يحتمل المراء، فهالهم الأمر، وأرعبتهم الصورة، فاستنكروا أن يكون ذلك من تقدير الاله القادر الرحيم الذي تصفه الديانات، ولم يكن امامهم الا واحدة من اثنَيْنْ: إما أن يؤمنوا بهذا الاله، أو يؤمنوا بالشر. أما الجمع بينهما فمستحيل في نظرهم فآمنوا بالشر وكفروا بالله والكفر بالله أمر يتحدّى البداهة ومعطيات العلم الحديث، كما سبق أن برهنا عليه.

وتوسط غير أولاء وأولئك، فلم يجدوا بداً من الايمان بالله، ولم يجدوا مفرا من الاعتراف بالشر، ولما كان هذا الشر في نظرهم يتعارض مع الرحمة (لا مع وجود الله) فقد تخيلوا الله - تعالى - محدود القدرة، يجري الشر في الكون رغم ارادته. يقول ايونج EWING في كتابه FUNDAMENTAL QUESTIONS OF PHILOSOPHY:

«ويعترض علينا بأن وجود اله قادرٍ رحيمٍ يناقض وجود الشر في العالم، ولكن هذا الاعتراض على أسوأ احتمالاته لا يمكن ان يبطل وجود الله، لأننا قد «نتصور الله محدودا تحده العقبات التي تحول دون القضاء على الشرور[1] ». وتصور الله على هذه الصفة أمر ترفضه الديانات السماوية الثلاث.

وبهذا تبلورت المشكلة، واتضحت أبعادها في الفلسفة، فماذا تقول الأديان؟ كيف توفق الأديان بين وجود هذا الشر، وبين القدرة والرحمة اللتين يتصف بها الله عز وجل؟ - تلك الرحمة التي تتعارض - ولو في ظاهرها - مع هذا الشر، وتلك القدرة التي لا يعجزها من شيء في الأرض ولا السماء، والتي لا تعجز عن درأ هذا الشر، ولكنها تسمح به على كل حال رغم ما يتصوره العقل - البشري - من مقتضيات الرحمة.

---

(١) نقلا عن كتاب «عقائد المفكرين» لمفخرة الفكر الانساني الاستاذ المرحوم العقاد ص٧٣ (مكتبة الانجلو المصرية).

وقامت الدنيا، ولم تقعد بعد... وأدلى كل بدلوه من علماء الأديان، ومن الفلاسفة الالهيين، من قبل عصر النهضة، ومن بعد عصر النهضة، ومن قديم الزمان وتناولت العقول، جيلا بعد جيل، ما قال هؤلاء وأولئك، وزاد كل ونقص، وبدل هذا وعدل ذاك، ونقحوا، وشرحوا، وفصلوا، وأوضحوا، وما زالت مشكلة الشر كما كانت من قبل بكرا لم تفض، ولغزا لم يحل، وسرا من سر القدر الذي أستأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه احداً من الملائكة المقربين ولا الأنبياء ولا المرسلين. الناس فيها كحمار الرحى يبدأون من حيث ينتهون وينتهون إلى حيث بدأوا. ومهما فصلوا، ومهما أوضحوا ومهما أدلجوا:

فهم في السرى لم يـبرحوا من مكـانهم
وخاضوا بحار «البحث» دعوى وما ابتلوا

وما أصدق المرحوم الاستاذ العبقري عباس محمود العقاد حيث يقول «أنريد كونا كهذا الكون الهائل لا عقدة فيه، ولا ينطوي على سر مجهول وراء حجاب. ان كان هذا مرادنا فليس بالعجيب الاَّ نجاب اليه[1]».

ولقد كانت العقول قبل عصر النهضة تستقبل الحلول التي تحل بها مشكلة الشر، بالرضا، والقبول والاطمئنان، فيما يبدو... رغم أن هذه الحلول نفسها كانت تنطوي على مشكلات.

فلقد كانت الظروف مواتية.

كان من السهل الايمان بوجود اله.

وكان من السهل تصور هذا الاله قادراً لا يحد من قدرته عائق، رحيما وسعت رحمته كل شيء.... وكان من السهل التوفيق بين هذا الشر، وبين متطلبات الرحمة دون الحد من قدرة الله عز وجل، فإذا

---

(١) أنظر «عقائد المفكرين» للمرحوم العقاد صفحة ٧٨.

كان هذا التوفيق - في حد ذاته - صعباً، فأصعب منه، وأكثر تعقيداً أن يلجأ إلى غيره من الحلول... ذلك لأنه لم تكن قد قامت للمصادفة دولة، ولم يؤله المصادفة أناس من أعظم العلماء عقولاً، حتى ليحتكم اليها العقلاء، لا المجانين.

ولم تبايع الطبيعة، بعد، بالالوهية باسم العلم، ولم تعتبر الاهاً غير مشارك، لـه كـل مـا لـلالـه الـذي يتصوره العقـل من الصفـات، والصلاحيات.

ولم تعرف نظرية التطور بالصورة التي تخول للملاحدة تفسير كل ما كان، وما يكون، على أساس المادة ولا شيء غير المادة.

ولم يجتث العلم البداهة من جذورها فتستسيغ العقول ان يكون الجزء أكبر من الكل، والواحد أكثر من الأثنين، وأن الخطين المتوازيين يلتقيان إلى غير ذلك مما يقال وما لا يقال.

ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات:

وقولهم ان الصـلاح واجـب عليه، زور ما عليه واجب
ألم يروا تعـذيبـه الأطفـالا وشبهها، فحـاذر المحـالا[1]

هذه الأبيات التي كان العلماء يتدارسونها، ويشرحونها، ويُدرِّسونها وكان الطلبة يتقبلونها بالرضا، والاستحسان. وكانت الهيئات العلمية تتداولها، خلفا عن سلف، وجيلا عن جيل، دون تردد، ودون اعتراض من جمهور أهل السنة والجماعة، وهم غالبية المسلمين. هذه الأبيات التي هي نبع الايمان الصافي، وفيض الأرواح الطاهرة، ومسك النفوس الزكية. هذه الأبيات التي لوقيلت اليوم لساعدت على الكفر، وباعدت بين الايمان ومهدت الى الالحاد كل سبيل.

نعم ان الحلول التي قدمت في موضوع الشر قبل عصر النهضة،

---

(١) شبهها يعني البهائم.

وجدت تربة صالحة ينبت فيها الايمان، وتستقيم فيها العقيدة، رغم ما كان في هذه الحلول من علات.

أما الحلول التي واكبت النهضة، ودارت في فلك العلم الحديث فقد باءت جميعا بالفشل؛ كل حل يخلّف وراءه مشكلة، وكل إجابة تطرح بعدها مسألة، وكل نتيجة تتولد عنها موجة من علامات الاستفهام الحائرة؟ ويستنكف العقل «المتألّه» الحديث عن قبولها على علاتها.

هل ذلك لأن مشكلة «الشر» غير قابلة للحل؟

أما أنها غير قابلة للحل، فقد تأكد مما سبق أن سقناه. ولكن هذا لا يمنع - أو ينبغي الا يمنع - أن يكون للعقل الموقف الصحيح إزاءها حتى يقف الايمان على أرض صلبة.

وسواء كان هذا أو ذاك. فان المسالك التي اتبعها المفكرون - قدامى ومحدثين - فيما يختص بالمسألة من شأنها الا توصل الى نتيجة...

خذ الغربيين الذين دالت اليهم دولة العلم، وقامت على أكتافهم هذه النهضة الحديثة، انهم حين يريدون أن يتعرفوا على كلمة «الدين» في هذا الموضوع يلجأون إلى المسيحية، وإلى ديانات أخرى مع المسيحية، ما عدا الاسلام، وهذه هي نقطة الضعف إذ لا يمكن أن نطمئن - اطمئنانا علميا - لأية اجابة يتقدم بها أي دين في هذا الشأن باستثناء الدين الاسلامي وذلك لسبب واضح، صحيح... وهو أن الفلسفات التي نشأت فيها الأديان - السماوية - الأخرى كالمسيحية واليهودية، أو التي امتزجت بها، وتفاعلت معها، هذه الفلسفات لا بد أن يكون لها أثر، كبير أو صغير في تحوير ما جاءت به هذه الأديان أو صبغه بالصبغة المنطقية التعليلية الفلسفية التي تضع في فم الدين ما لم يقله، ومجرد احتمال هذا الأثر يقضي على الطمأنينة العلمية قضاء مبرما؛ اما القرآن الكريم فإنه نزل في بيئة هي ابعد ما تكون عن التحليل المنطقي المنظم، والتعليل الفلسفي الشامل، فضلا عن أن الدين الاسلامي،

هو الدين الوحيد الذي احتفظ بكيانه التام، وجوهره الكامل، وأصله الحقيقي، بين سائر الأديان[١]...

وبناء على ذلك فإن ما جاء فيه يعتبر - أو يمكن أن يعتبر - الرأي الذي يطمئن اليه الباحث باعتباره رأي السماء، أو رأي الدين خالصا نقياً من أية شائبة من شوائب «الأرض» أو تخيلات الفكر الانساني المغرض.

ولقد كتب الفيلسوف المعروف «جود» بحثا مستفيضا عن «الشر» في كتابه Recovery Of Belief. بناه على ما يعلمه من المسيحية والديانة الاغريقية القديمة، لأنه - فيما يذكر - لا يلم الماما تاما بغير هاتين الديانتين[٢]. ولذلك ضاع المجهود الضخم الذي قام به سدى، وذهب أدراج الرياح إذ اختلطت كلمة «السماء» بكلمة «الأرض» ولم يعد من الممكن الاعتماد على ما جاء في هذا الخليط على أساس أنه رأي الدين، ولا شيء غير الدين. فقد يكون الذي توصل اليه - ان كان قد توصل لشيء - هو رأي الأرض، رأي الفلسفات الرومانية واليونانية، رأي الوثنيات التي امتزج بها دين السيد المسيح، لا رأي السماء.

أما المفكرون الاسلاميون فهم واحد من اثنين، أما أبواق تردد ما

---

(١) جاء في كتاب «الله او الدمار ص٥١ يقول الاستاذ «دريير» في كتابه «النزاع بين العلم والدين» امتزجت مبادىء المسيحية وقيمها ببقايا الوثنية ونشأ عن ذلك الامتزاج دين جديد هو خليط من المسيحية الأصلية، والوثنيات اليونانية والرومانية وهذا وجه الخلاف بين نشأة الاسلام والنصرانية، اذ بينما اضطرت النصرانية الى النمو في حضانة الوثنيات التي سادت المجتمع الروماني، قضى الاسلام على الوثنية منذ البداية قضاء مبرماً، وجاء في نفس الكتاب ص٢٥٦ «يقول» ريورند باسورث سميث» عضو كلية التثليث في محاضراته المجموعة عن محمد والاسلام «أننا نجهل الكثير عن ديانات بوذا وكونفوشيوس وزرادشت، ويشمل الغموض حياة المسيح وأصحابه وحوارييه. وليس لدينا الا مراجع قليلة لا تغني عن حياة موسى، اما الاسلام فأمره واضح كله، وفي أيدي الناس تاريخه الصحيح».

(٢) أنظر صفحة ٧٩ من كتابه المشار إليه.

يقوله الغربيون كأنه تنزيل من التنزيل، فهؤلاء لا كلام لنا معهم، فإن الكلام انما يكون مع الأصل، لا مع الظل، مع المتبوع لا مع التابع، وإمّا أصحاب أصالة واستقلال وفكر، وموقف هؤلاء من قضية الشر يدعو للدهشة:

خذ مثلاً الأستاذ/ مصطفى صبري، وهو موسوعة من العلم والمعرفة، قل أن يوجد لها نظير، وشعلة من الطاقة البناءة، ندر أن يكون لها مثيل، كتب كتابه الضخم «موقف العقل والعلم والعالم» فلم يترك شاردة ولا واردة - مما يتصل بالموضوع - الا استقصاها فيه، ولا موضوعا ولو تافها، إلاّ جال فيه وصال، وأرغى وأزبد، وأقام وأقعد. حتى إذ وصل الى مشكلة الشر، مشكلة المشكلات ومعضلة المعضلات، فإذا به - على غير ما يعهد فيه - يشيح عنها بوجهه على أساس أنها لا تتصل بالبرهان على وجود الله، الذي هو لب الكتاب. حتى الأستاذ العقاد - قمة الفكر الانساني الرفيع، وطود العروبة والاسلام المنيع - حين تعرض لموضوع الشر في كتابه «حقائق الاسلام وأباطيل خصومه» لم يمسه الا مساً رقيقاً كما يفعل العوام. وفي كتاب ضخم، هو «قصة الايمان» نحا المؤلف - الاستاذ نديم الجسر - نفس المنحى الذي ارتضاه العقاد في «حقائق الاسلام وأباطيل خصومه» وربما ردد نفس «الاسطوانة» وكرر نفس العبارات. صحيح أن المرحوم العقاد توسع في بحث مشكلة الشر حين عرض لها في كتابه القيم «عقائد المفكرين» الا أنه لم يصل إلى المدى الذي كان ينتظر منه. إذ اغفل ارتباط موضوع الشر بالبهائم والأطفال وكيف نفسر هذا الشر الذي يحيق بهؤلاء، وهي عقدة العقد ومشكلة المشكلات وبذلك ضاعت مشكلة «الشر» في الغرب حيث حاول الغربيون حلها في غير ميدانها، وضاعت - بالمثل - عند المسلمين، حين استخفوا بها او تهيبوها، او نظروا إليها بمنظار القدامى من المتكلمين... ولنلق دلونا في الدلاء، وان كانت المشكلة اكبر من أن تحل.

الواقع - كما رأى الاستاذ/ مصطفى صبري - أن «مشكلة» الشر لاصلة لها بموضوع وجود الله، بحيث تؤثر فيه نفيا أو اثباتا وقد مر بك قبل هنيهة قول الفيلسوف الكبير EWING (ايونج) مما رواه عنه استاذنا الجليل الفذ عباس محمود العقاد... لكن يؤخذ على الاستاذ الكبير مصطفى صبري أمران:

الأول: أن برهان الغاية TELEOLOGICAL, يتأثر تأثراً كبيراً بموضوع «الشر» حتى ان الملاحدة ليذهبون الى أن كل المظاهر «الغائية» في الكون، انما جاءت عفوا، وبدون تقدير، شأنها في ذلك شأن الشر سواء بسواء، واليك ما جاء في دائرة المعارف البريطانية، فيما يختص بالمشكلة، وان كانت تلطفت كثيراً في العرْض:

«إذا كنا ممن يؤمن بأن الخير هو المتعة الخالية من الالم فإن برهان العناية او الغاية لن يكون له الا وزن ضعيف، ذلك لأن من طبيعة الحياة الا تعطينا القسط الأعظم من الشعور بالمتع والملذات»(الخالية من الآلام). فلا بد لمن يؤمن بمثل هذه البراهين الفلسفية، ايمان الاستاذ مصطفى صبري، ويتحمس لها تحمسه، ان يحل هذا الاشكال حتى يقف برهان الغاية على قدميه من غير تعثر. هذا فضلا عن أن من غرض الاستاذ مصطفى صبري من تأليف كتابه هذا هو أن يعيد الى البراهين - التقليدية - حيويتها وفعاليتها، وأن يخلصها من قبضة الفيلسوف المشهور «كانط» ومن نحا نحوه من الفلاسفة الذين شددوا من هذه القبضة حتى استحالت هذه البراهين جسداً بلا روح.

الأمر الثاني (الذي يؤخذ على الاستاذ مصطفى صبري) هو اننا حين نخاطب الملاحدة ينبغي الا نخاطبهم بحسب تخيلاتنا للمشكلة، وانما نخاطبهم على أساس الصورة التي يتخيلونها هم للمشكلة، وإذا كنا نعتقد ان «الشر» مهما عظم، لا ينفي وجود الله، وانما قد يؤثر في الصورة التي نتخيلها عن الله، أو قدرته، أو رحمته على أسوأ الفروض، إذا كنا

نعتقد ذلك فإن الإتجاه العام (غير المؤسس) بين المثقفين، هو انكار وجود الله، من أجل وجود «الشر» في الكون، ويعتبره الاستاذ «كوكس» EDWIN COX عقبـــة كـــأداء في طريـــق من يريـــدون الايمان[١]» هكذا يقول «كوكس» باعتباره مؤمناً - أما الملاحدة من أمثال بيرتراندرسل فانهم يعتمدون في الحادهم على الشر، أكثر مما يعتمدون على أي عامل آخر[٢] بل حتى في الفلسفة، فإن مشكلة «الشر» تعالج من عدة وجوه، من بينها منافاتها لوجود الله عز وجل[٣] وعلى هذا الأساس كان ينبغي ان تنال من الأستاذ «مصطفى صبري» ولو بعض الإهتمام الذي أولاه حتى لأتفه المسائل التي أسهب في معالجتها في كتابة القيم، الثمين، الضخم، «موقف العقل والعلم والعالم».

أن أول ما يهمنا في بحثنا هذا، هو أن وجود الشر، لا ينفي وجود الله، وكيفما كان أثرها في برهان الغاية الآنف الذكر، فإن كل البراهيين التقليدية القديمة، قد فقدت قيمتها الأساسية، ومع ذلك ما زال وجود الله حقيقة ثابتة، إنه من الحقائق الأولية التي تقول بها «البداهة»، «وإذا قالت البداهة نعم هناك اله فهذا القول له قيمته في النظر الانساني، لا يقل عن قيمة المنطق والقياس، لأنّها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند غير سنده[٤]».

صحيح أنّ «العلم الحديث» أحال كثيراً من البديهيات إلى محض

---

(١) أنظر Changing Aims In Religious Education صفحة ٤٧.

(٢) على سبيل المثال أنظر كتاب Why I am Not a Ghristian لبيرتراند رسل الصفحات ١٨ عند حديثه عن برهان الغاية، و٢٠ عند كلامه عن العدل، و٧٣ آخر فقرة عن رأيه عن «البعث» بعد الموت» الخ الخ.

(٣) أنظر كتـــاب Fundamental Problems Of Philosophy تـــأليـــف الاستـــاذ Stephen Kerner (Penguin) ص١٦.

(٤) أنظر كتاب «الله» للأستاذ العقاد صفحة ٢١٢.

خرافات، الاّ أنه - كما رأيت في الفصول السابقة من هذا الكتاب - أيد البداهة فيما تقوله عن وجود الله عز وجل...

والأمور البديهية - إذا لم ينسفها العلم - لا تحتاج إلى برهان، وانما يطلب البرهان ممن تحدى البداهة في أمر من الأمور، ولقد رأيت كيف أنّ «الملاحدة» حاولوا أن يتحدوا البداهة ويقيموا انكار وجود الله عز وجل على أساس من العلم، ورأيت كيف أنّ محاولاتهم جميعا باءت بالفشل، بل ارتد سلاحهم الى نحورهم: فنظرية التطور - لو صحّت - تقتضي، كما رأينا، موجها لهذا التطور، وبذلك يقول العلم؛ وقانون «المصادفة» أو حساب الإحتمالات ينفي ان يوجد هذا الكون من غير موجد على أساس الحساب، والحساب لا يخطىء، والقول «بالطبيعة» - كما رأيت من قبل - انما هو خلع صفات الله تعالى، على شيء موهوم، وغير موجود، بلا مبرر من العلم، ولا من المنطق والعقل. ومبدأ «السببية» الذي يعتمد عليه العلم رغم أوهام «هيوم» يؤكد وجود الله عز وجل... إلى غير ذلك مما سبق تفصيله في الفصول السابقة من هذا الكتاب...

السؤال إذن هل الله - تبارك وتعالى - عاجز عن درأ هذا الشر؟ باعتبار أنَّ «الشر» - في حدود الفهم البشري - يتنافى مع ما يتّصف به الله من الرحمة...

لننظر في قدرته تعالى في مخلوقاته...

خذ الأجرام السماوية مثلاً.

«إن عدد الأجرام السماوية التي تسبح في الفضاء يعادل عدد ذرات الرمال التي في جميع شواطىء البحار التي في المعمورة، وقليل من هذه الأجرام ما حجمه أكبر بقليل من حجم الأرض. أما الغالبية العظمى من هذه الأجرام فإن النجم الواحد منها، يساوي في حجمه مئات الألوف من حجم الأرض. على أنك تجد هنا وهناك في هذا الفضاء من

الأجرام ما يربو حجم الواحد منها على ملايين الأضعاف من حجم الأرض[1] »...

أي كون هذا؟ وأية قوة اخرجته الى الوجود...

وكل حرم من هذه الاجرام يدور بسرعة اقلها عشرة أميال في الثانية الواحدة، وتصل الى ٦٠٠٠ ميلاً في الدقيقة.

بعض هذه الأجرام تمخر في الفضاء فرادى، وبعضها مثنى مثنى، ومنها ما يجري في شكل مجموعات.

ولقد استقرت كل واحدة منها في فلك خاص، بحيث لا تصطدم بغيرها... ورغم أن المسافات التي تفصل بينها مسافات تكاد تكون خيالية، فإنها تحيط بالكرة الأرضية كما يقول جيمز - أ - كولمان - «كما تحيط الغابة المكتظة بالأغصان والورق بقطعة الأرض التي تحتها[2] ».

«ويرى علماء الفلك أن مجرات النجوم يتداخل بعضها في بعض، فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة في مجرة أخرى مثلها، وتتحرك سياراتها هي الأخرى، ثم تخرج منها بسياراتها جميعا دون أن يحدث أي تصادم بين سيارات المجرتين[3] ». أي كون هذا؟ وأية قوة أخرجته الى الوجود؟ وهل يمكن، أو يستساغ أن يتصور لهذه القدرة حدود؟ هل يعقل ان توصف بالعجز؟ وأي شيء ترى يعجزها؟ وكل شيء في الكون موضوع - بهذه القدرة - في الوضع الذي لا يتصور العقل البشري أحسن منه... حجم الكرة الأرضية مثلاً؟ بعدها

(١) أنظر كتاب This Mysterious Universe للسير جيمز جين صفحة ٥.

(٢) أنظر تفصيل ذلك في كتابه القيم Modern Theories Of The Universe صفحة ٦٥ و٦٦ منشورات؟

(٣) الاسلام يتحدى - للاستاذ وحيد الدين خان صفحة ٥٨ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٣ هـ منشورات دار البحوث العلمية.

عن الشمس، سرعة دورانها، بعدها عن القمر، نسبة الأكسوجين في الهواء، درجة ميلان المحور الحالية، إلى ما لا يحصى من الأمور، لو زاد شيء فيها أو نقص أو تغير، لاختل نظام الكون الحالي، ولا داعي لتفصيل ذلك هنا، فهناك كتب كثيرة، وفي المتناول تعطي أفضل صورة عن هذا لمن يريد، على سبيل المثال كتاب «العلم يدعو للإيمان» تأليف Cressy Morrison رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة الاستاذ محمود صالح الفلكي، ومثل كتاب الاسلام يتحدى لوحيد الدين خان، تعريب ظفر الاسلام خان، ولقد مر بك في الفصل الخاص بالطبيعة من هذا الكتاب كيف ان الخلية تقوم بأعمال تدهش العقول، دعك من الأجهزة المختلفة... ذلك تقدير العزيز العليم. الذي أحسن كل شيء خلقه. الذي لا يعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء... ان هذه القدرة اللانهائية، الغير المحدودة، والتي تتجلى في كل شيء، لا يتصور أن يجري الشر في الكون على رغمها.

بل أن هذا الشر الذي نراه لفي قبضة هذه القدرة الالهية، يبدأ حيث تريد، وينتهي حيث تريد، ومظاهر الضبط والتنظيم في دائرة الشر لا تحصى.

خذ مثلاً ذبابة التسي تسي...

لماذا ينحصر ميدانها في المناطق الحارة، وحدها؟ ولماذا لا تتكاثر، وماذا يمنع من الناحية النظرية ان تتكاثر، وتتكيف كما تكيف غيرها، وتعيش في غير المناطق الحارة أيضاً كما عاش غيرها؟ وتعرض بذلك الجنس البشري الى الفناء؟

وبعوضة الملاريا، وبعوضة الحمى الصفراء، وغيرهما من حاملات الأسقام، ونافثات الاوبئة... أهنالك - ما يمنع -، من الناحية النظرية - من غزو هذه الحشرات الفتاكة وأمثالها لهذا العالم أجمع بحيث تكون لها السيادة التامة، والسيطرة الكاملة عليه؟.

ولولا أنّ ما يصيب البشرية جمعاء من شرور مقدر تقديراً خاصاً، ومضبوط ضبطاً محكماً، لما بقي على وجه البسيطة اليوم انسان واحد...

والا فماذا كان يمنع الكليرا أو الطاعون، أو أي وباء آخر، من أن يكتسح أمة بأكملها في الأزمان الغابرة حيث كان الجهل بالقواعد الصحية تاماً، وبالطب الوقائي مطبقاً؟

وكيف استطاع الإنسان أن يصمد في وجه التغيرات الطبيعية التي واجهته كالموجة الجليدية، وما شاكلها، وأن يفلت - بالمثل - من أسر آكلات اللحوم، ونافثات السموم، وهو من أضعف المخلوقات، ان لم يكن أضعفها وأحوجها الى الوقاية؟ كيف استطاع الانسان أن يفلت من كل هذا، وأن يبقى حتى الآن لولا أن الشر يمشي في الكون على قدر مقدور، وخطة مرسومة هو في قبضتها، وتحت أسرها؟

وماذا كان يمنع من انقراض الجنس البشري من الوجود؟ ألم ينقرض ما هو أعظم منه من الحيوان كالدناصر (الضخمة)، وما هو أكثر منه عدداً كالحمام المسافر (الذي يعتقد انه كان في وقت ما أكثر عدداً من البشر). ألم ينقرض غير هذه وتيك ملايين من الحشرات والأسماك والطيور؟ أليس في كل ذلك، وغير ذلك، البرهان على أن الشر في قبضة الله تعالى وتحت ارادته؟

هنا يُطِلُّ سؤال هام: لماذا يقدر الله الشر ما دام قادراً على درئه؟

وأكثر ما يكون هذا السؤال اعتراضا على وجود الشر في الكون، لا استفساراً عن الحكمة منه. كأن المعترض يريد كونا لا شر فيه.

إن الله خلق عالم الملائكة، وليس في مقدور العلم أن يَنْفيَ ذلك، وعالم الملائكة هو عالم لا شر فيه، فهل يريد المعترض ان يكون هذا العالم الذي نعيش فيه كعالم الملائكة مثلاً؟ بمعنى هل يريد من الله - تعالى - ان يخلقنا ملائكة، لا بشراً؟ إنّ السعادة - بمقياس العقل

البشري - لا توجد، أولا توجد كاملة، في عالم الملائكة، وان خلا من الشرور، إنّ كثيراً من الملاذ التي تعتبر من دعائم السعادة لبني الإنسان، لا توجد في عالم الملائكة، لأنها لا تتلاءم مع ما فطر عليه الملائكة حسب الغرض الذي أراد الله تحقيقه من عالمهم.

فالمسألة ليست مسألة خلو الكون من الشر، وانما هي مسألة الغرض الذي يخدمه الشر، فهل في مقدور العقل البشري ان يتصور ان يعرف الصابر من غير الصابر دون أنْ تكون هناك شدة؟ هل في مقدور العقل البشري أن يتصور أن يدرك حقيقة صدق دعوى المدعي من كذبها، دون أنْ يكون هناك بلاء؟ هل في مقدور العقل البشري ان يتصور الشجاعة دون ان يكون هناك ألم أو موت؟ أو يتصور الجود والكرم دون أن يكون هناك خوف من الفقر، أو يتصور امكان تميز مراتب الناس دون ان يكون هناك ثمن لكل مرتبة؟

قد يقول المعترض أنّ كل ذلك صحيح في حدود العقل البشري... لكن قدرة الله غير محدودة وهي صالحة لإيجاد كون تتميز فيه المراتب والاقدار دون الحاجة الى الشر.

وهنا يخطىء المعترض من ناحيتين.

الأولى، اننا إذنْ نزن الأمور بميزان غير الميزان الذي خولنا الله اياه، وارتضاه حكما بيننا وبينه تعالى في الدنيا والآخرة، ان الله سبحانه وتعالى قَبِلَ أن يحاسبنا، وان نحاسبه تعالى في حدود العقل البشري، فأرسل تعالى «رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة»... وجعل سبحانه وتعالى العقل مناط التكليف، فمن لا عقل له فليس بمكلف، ولا مسؤول، بل ان من لم تبلغهم الرسالات - اذا حوسبوا - فانهم لا يحاسبون الا في حدود ما يعقلون، وما يفهمون. ويوم القيامة «تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» - «وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك

كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ».

هذا هو ميزان التعامل بيننا وبين الله تعالى، وهو العقل... فما يستحيل عقلا، ينبغي ألا نطالب به الله تعالى، لأنه لم يطالبنا بما يستحيل. وإذا طالبنا الله تعالى بالمستحيل فمعنى ذلك أننا رمينا بالميزان المتفق عليه بيننا وبينه تعالى عرض الحائط وأصبح من حقه تعالى، إن صح التعبير، أن يرمي هو أيضا بهذا الميزان فيطالبنا بالمستحيل، ودقة بدقة، وتئول الأمور بعد ذلك الى الفوضى. يقول الاستاذ لويس صاحب كتاب «مشكلة الألم» «ان القدرة على كل شيء معناها القدرة على ما هو في اساسه ممكن، وليس معناها القدرة على ما هو في اساسه مستحيل. انك تستطيع ان تنسب المعجزات الى القادر على كل شيء، ولكنك لا تستطيع ان تنسب اليه الهراء. فاذا بدا لك ان تقول ان الله قادر على ان يمنح الانسان حرية الارادة ويحرمه اياها في وقت واحد فانك لم تفلح في اسناد صفة قط الى الله ووحي الكلمات التي لا معنى لها لن يصبح له معنى لمجرد قولك معه هل يستطيع الإله؟ ويبقى صحيحا ان كل شيء ممكن في قدرة الله، لأن الاستحالات معدومات وليست بالأشياء الموجودة او التي تقبل الوجود»[١].

أما الناحية الثانية، فلا يخفى ما في هذه المطالبة لله تعالى من جهل بأقدارنا. فنملي ارادتنا عليه، تعالى، ونطالبه بأن يكون عالمنا هذا لا شر فيه، كأننا أعلم منه، أو أدرى بالأصلح منه.

قد يقال بما أننا طرف أساسي في الموضوع، أي بحكم تعرضنا لهذا الشر، وبحكم معاناتنا لهذا البلاء أليس من حقنا (في حدود العقل البشري) ان نقول لماذا نوجد في مثل هذا الكون حتى ولو قبل العقل الحكمة من وجود الشر فيه ؟.

(١) عقائد المفكرين للعقاد ص٧٢ و٧٣ (مكتبة غريب).

وقيمة هذا الاعتراض، من الناحية العملية. أن المرء يفضل العدم - من أجل الشر - على الوجود، وهي دعوى يكذبها الواقع المحسوس الملموس...

فكم من أم مات وحيدها، أو ذبح في حجرها في بعض الأحيان، وظن الناس أنها ستموت عليه كمداً أو انتحاراً، شقت طريقها في الحياة كسائر الناس، وبدت عليها امارات السعادة بعد حين، ولم تفضل الموت من أجل هذا الخطب الجلل.

والرجل الهرم الذي فقد شبابه، وفقد كل أسباب المتعة، ربما كان يعتقد أنه لن يسمح للموت أن يتركه حتى يصل إلى هذه المرحلة، فإذا به يستريح لها، ويطمئن اليها بل ويجد فيها نوعا من الراحة والدعة والسعادة، فضلا عن أن يختار العدم، أو الموت من أجلها.

والمجذوم الذي كان، وهو صحيح الجسم، يرى بمنظاره الخاص أن الموت في أي صورة من صوره أفضل بكثير من داء الجذام، عادت نفسه فتكيفت - في واقعها الجديد الأليم - تكيفاً تؤثر فيه الحياة على أيسر صورة من صور العدم والفناء.

وقل مثل ذلك في المقعد، في الأعمى، في الأصم، في المدقع، في العقيم، في كل مبتلي بأي نوع من أنواع البلاء...

فدعوى أن المرء يفضل العدم على الوجود من أجل الشر دعوى يكذبها الواقع الملموس والمشاهد المحسوس.

قد يعترض هنا بحوادث الانتحار، ولا شك أن المنتحر لا يقدم على الإنتحار الا وهو يفضل الموت على الحياة ويؤثر العدم على الوجود...

والرد على هذا الاعتراض من شقين: -

الشق الأول، هو أن نسبة الانتحار ضئيلة لا يعتد بها، وتعتبر في حكم النادر والنادر لا حكم له. فإن نسبة من يموتون منتحرين في أمريكا

مثلاً سنة ١٩٥٢ هي ٤/٢ - من كل مائة ألف في السن ما بين الخامسة عشر الى الرابعة والعشرين[١] فأي وزن لمثل هذه النسبة؟ حتى انها حين ترتفع الى ٢٣/٥ في كل مائة الف فيا بين سن ٥٥ و٦٤[٢] لا تكاد تساوي شيئاً...

الشق الثاني، هو أن الانتحار يرجع إلى اختلال في توازن المنتحر أكثر مما يرجع إلى الشر نفسه، فقد نجد، مثلا، رجلا يقدم على الانتحار بسبب انه لم يستطع الزواج من امرأة معينة، مع اقتداره على الزواج من الالآف من مثيلاتها، هذا في الوقت الذي نجد فيه أعداداً غفيرة من سكان المعمورة لا يقدمون على الانتحار، وربما لا يفكرون فيه حتى مجرد التفكير، مع أنهم لا يستطيعون الزواج من أية امرأة لعاهة من العاهات، وقد تكون ظروفهم الأخرى أسوأ بكثير من ظروف المنتحر وأدعى إلى الاقدام على الانتحار، لو كان الشر هو العامل الأساسي في تفضيل العدم على الوجود، بل ان الاحصائيات تدل على أن نسبة الانتحار بين البيض في أمريكا أعلى بكثير منها بين الزنوج[٣] مع أنه لا وجه للمقارنة بين ظروف البيض والزنوج في أمريكا حتى ان هذه النسبة لو انعكست لكانت أقل من المنتظر بكثير إذا كان الشر هو العامل الرئيسي فيها...

ونسبة الانتحار بين النساء أقل منها بين الرجال[٤] وليس معنى ذلك أن الشر، الذي يحيق بالنساء أقل أثراً، وأضعف وطأة من الشر الذي يحيق بالرجال. ولعل العكس هو الصحيح، ونسبة الانتحار في الأردن هي حالة واحدة من كل مائتي الف نسمة، بينما في بريطانيا وأمريكا هي عشرون حادثة بين كل مائة ألف شخص، وليس معنى

---

(١) و(٢) أنظر دائرة المعارف البريطانية ص٥٣٣ - تحت كلمة Suicide طبعة عام ١٩٥٧م.

(٣) أنظر دائرة المعارف البريطانية سنة ١٩٧٢ تحت كلمة Suicide المجلد الحادي والعشرون ص٣٨٤.

(٤) نسبة الانتحار بين الرجال تساوي ٤ أضعاف نسبة الانتحار بين النساء - أنظر المصدر السابق نفس الصفحة والسنة.

ذلك أن الأردن أسعد حالاً من بريطانيا وأمريكا[١].

نستخلص من كل ذلك أن الانتحار لا يصلح سندا لمن يزعم أن الشر هو العامل الأساسي في الاقدام عليه. فضلا عن أن ذلك لو كاز كذلك، لما بقي أحد في الوجود حتى الآن بل لما فضل أحد أن يلقي بفلذة واحدة من فلذات كبده، في هذا الكون، الذي يتخيله في صورة الأتون المستعر.

قد يرد بأنه حتى لو سلمنا جدلا، بالحكمة من وجود الشر في هذا الكون، وعدم منافاة ذلك لقدرة الله ورحمته، فقد نرى أن مقادير هذا الشر أكبر بكثير مما تتطلبه هذه الحكمة، ومما يقتضيه الغرض الذي وجد الشر من أجله.

والذي يقول بذلك، لا أدري على أي أرض يقف، ولا بأي مقياس يقيس...

إن تحديد المقادير اللازمة من الشر، يتطلب معرفة تامة بطبائع النفوس وأحوالها، والنوع الذي يصلح لها في كل حالة على حدة، والمقدار الضروري منه. فمن في الوجود، بالغاً ما بلغ من العلم والمعرفة، تحدثه نفسه بدعوى هذه المعرفة.

ويلزم من ذلك أن مجرد الكلام عن مقدار الشر في هذا الكون دعوى لا تقوم على أساس، وجهل من الإنسان بقدره.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المرء قد يحتج بما يصيب الأطفال والبهائم من الشرور. فلولا أن الشر - بمقياس العقل البشري - أعظم مما تدعو اليه الحكمة من وجوده، لكان البهائم والأطفال في مأمن منه... على أقل تقدير...

---

(١) أنظر مقاله بعنوان «الانتحار والمجتمع» في جريدة Statesman Weekly. الهندية. بعددها الصادر بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٨٠م.

ونحن نكذب على أنفسنا، ونكذب على الله، ان لم نعترف بأن هذه هي عقدة العقد، ومشكلة المشاكل، ومع ذلك فلنلق بأنفسنا في غمار هذا الخضم المتلاطم الذي لا ساحل له، ولا غور، لنرى على ماذا نحصل، وبأي شيء نعود، ان كتبت لنا السلامة.

أولا: لقد سبق أن أكدنا ان الشر مهما تعاظم أمره، وتفاقم خطره، لا ينفي وجود الله، ولا يستطيع أن ينفي وجود الله، وهذا هو لب البحث الذي نحن بصدده، كما سبق أن أكدنا أنه انما يجري في الكون بمشيئة الله وارادته، وبعد ذلك ظن في الله ما تشاء، مما هو منزه عنه، فالمهم أنه موجود رغم أنف المعترض[١]، وانه قادر لا يعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه اراد أن يجري الشر في الكون على هذا النحو، وبهذا المقدار. كما سبق أن برهنا على ذلك بما فيه الكفاية.

وعلى هذا تكون المشكلة قد تبلورت، واتضحت أبعادها، فليست هي ألا يتنافى وجود الشر في هذا الكون مع وجود الله؟ «وانما هي هل يستطيع العقل أن يتفهم لماذا يوجد الشر وبهذه الصورة».

نعم المسألة هي «لماذا يوجد الشر، وبالمقدار الذي لا يفلت منه حتى الأطفال والبهائم؟ ان هذا إذا كان اعتراضاً فما هي نتيجته؟ هل نتيجته ان الله محدود الإرادة، أو «اله على الرف» كما يقول البعض؟ العقل يأبى ذلك، والعلم، وقد برهنا على ذلك فيما سبق، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً إذن هل نتيجته ان الله - تعالى - ظالم، أو غاشم؟ لقد أجمعت الأديان السماوية على أن الله حرم الظلم على نفسه كما حرمه على عباده، فهل في العلم الحديث ما يقوى على أن ينفي ذلك؟ ولو

---

(١) نعيد هنا ما سبق أن أوردناه من قول العلامة ايونج EWING في كتابه Fundamental Questions Philosophy وهو: «ويعترض علينا بأن وجود اله قادر رحيم يناقض وجود الشر في العالم، ولكن هذا الاعتراض على أسوأ احتمالاته لا يمكن أن يبطل وجود الله لأننا قد نتصور الله محدودا تحده العقبات التي تحول دون القضاء على الشرور» تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

اختار الله لنفسه الظلم وأحله لها فمن ذا يستطيع أن يقف في وجهه؟ «قل فمن يملك من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم... وأمه... ومن في الأرض جميعاً» ومظاهر القدرة في الكون تجيب «لا أحد يملك من الله شيئاً ان اراد ذلك أو أفظع منه».

إذن فليس أمامنا من المشكلة الا أن نتبصر: هل لما يصيب الأطفال والبهائم من الشر حكمة[1]؟ وهل في استطاعة العقل - البشري - ان يصل إلى أغوار هذه الحكمة؟

هذه هي المشكلة، وعلى الأساس وحده، ينبغي أن يواجهها العقل.

لننظر أولا في ما يقول الدين عن هذه المشكلة:

لقد أشار القرآن الكريم - في ايجازه المعروف - الى الحكمة فيما يصيب الأطفال من شرور:

«فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون - التوبة آية ٥٤.

فلا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون» - نفس السورة آية ٨٤.

هنا تطل مشكلتان:

المشكلة الأولى:

هاتان الآيتان نزلتا في حق أولاد المنافقين والكفار... فهل ابناء المؤمنين في مأمن من الشرور... الواقع يقول لا.

المشكلة الثانية:

صحيح أن ما يحيق بالأطفال من شر فيه تعذيب أليم لوالديهم، ولنفرض - وهو الصحيح - أن هؤلاء الوالدين يستحقون هذا القدر

(١) سنعود الى تفصيل الحكمة في الشر الذي يصيب المكلفين في نظر الاسلام.

من هذا اللون من العذاب المعجل، فما ذنب الأطفال الأبرياء الغير المكلفين بطبيعة الحال؟ أيؤاخذون بما اقترف والدوهم من الآثام؟ ألم يقل القرآن الكريم نفسه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

الإجابة على المشكلة الأولى:

ان أبناء المؤمنين - المتدينين - وأبناء الكفار جميعاً سواء في التعرض للشر في الدنيا، هذا لا يختلف فيه اثنان. بل قد يكون أبناء المتدينين - في ظروف مختلفة - أشد عرضة... ولكن العذاب الذي يصيب الوالدين الكافرين بأولادهم أمض وآلم مما يصيب الآباء المؤمنين، ذلك لأن المتدين يجد من نسمات ايمانه بالله ما يلطف له وهج البلاء، ويضيق من مجاريه في نفسه فايمانه بالعدالة الالهية، وايمانه بتدبير الله الذي هو في نظره - بل وفي الواقع بالمثل - أعظم من تدبيره هو، وايمانه بما سيوفاه من الأجر في الآخرة في مقابل هذا البلاء، وايمانه بأن الآخرة خير، وان هذا من الغرس الذي سيؤتي أكله فيها... كل هذه، وغيرها تكسر من حدة البلاء، وتطفىء من لهيبه، بل وتكاد تقضي حتى على الاحساس به... بخلاف الكفار وهذا التفاوت ملحوظ ومشاهد حتى بين المتدينين أنفسهم، فانك تجد أكثرهم جزعا وأقلهم احتمالا - عادة - هم أضعفهم ايماناً وأكثرهم انصرافاً الى الدنيا وأقلهم اهتماماً بالآخرة...

وعلم النفس نفسه يؤيد ذلك.

ان العقيدة - كما يقول السير وليام أوسلر William Osler «قوة محركة عظيمة، لا توزن بميزان[1]»...

وفي التاريخ الثابت شواهد عديدة لا نريد أن نطيل بذكرها... خذ على سبيل المثال - الخنساء - لقد بكت أخاها صخراً في الجاهلية

(١) نقلا عن كتاب الاسلام يتحدّى تأليف وحيد الدين خان صفحة ١٨٦.

حتى فقدت بصرها، ولما جاء الاسلام وأسلمت فعل الايمان فعلته فيها حتى أنها لم تذرف دمعة واحدة على أبنائها الأربعة الذين استشهدوا في موقعة واحدة، أحوج ما تكون هي اليهم...

ومثالا ثانيا: امرأة من بني عبد الأشهل تفقد أخاها، وزوجها، وولدها كل أولئك في موقعة أحد... ولم يكن تفكيرها، ولا همها، ولا شغلها الا في حياة الرسول وسلامته صلوات الله وسلامه عليه، انه الايمان ،يفعل المعجزات.

أتريد مثالاً آخر؟ أبو دجادنه رضي الله عنه يترس بظهره في أحد ليحمي رسول الله ﷺ من نبال المشركين، حتى لكأنه كان يترس بايمانه لا بظهره، فيقضي الايمان على الاحساس بالألم، نعم، فالايمان «قوة محركة لا توزن بميزان».

وسحرة فرعون إذ قال لهم فرعون «فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى» فماذا قالوا؟ هل خافوا؟ هل تراجعوا؟ «قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا» هذا هو الايمان... هذه هي العقيدة التي تتخطى الحواجز، ولا تعبأ بالالآم والأحزان.

والأمثلة كثيرة لا تكاد تحصى، دعك مما في أقوال الصوفية - الصادقين - من استعذاب للعذاب واستراحة إلى الالم.

كل ذلك وغيره، يكشف لنا عن أثر الدين في تخفيف وطأة البلاء، والحد من دائرة الاحساس به على الأقل...

الإجابة على المشكلة الثانية: الاعتراض هنا مبني على افتراض أن ما نشعر به من العطف والشفقة والرحمة حين نرى شخصاً تحت وطأة نوع من البلاء هو المقياس الصحيح الذي ندرك به مدى ما يرزح تحته

هذا الشخص من الالم، نفسياً كان، أو عضوياً.

وهذا افتراض خاطىء، ولا يؤدي الا إلى نتائج خاطئة.

خاطىء - أولا - لأننا لا ندخل في حسابنا تلك الضوابط - أو ما يمكن أن يسمى صمامات الامان - التي زود الله تعالى بها الإنسان، بحيث إذا زاد الالم عما تحتمله طبيعته، فقد وعيه واحساسه بالالم إذا كان الألم عضوياً، وفقد عقله إذا كان الألم نفسياً - وفي كلتا الحالتين انتقل الى حالة لا يحس فيها بالألم، مهما كان نوعه، ومهما بلغت درجته.

وبعد ذلك زوَّد الله تعالى الانسان بملطفات البلاء ومخففات الشقاء. يقول الاستاذ «مالكولم جرايت» «لا ينبغي ان ننسى ان في الانسان قوة تعمل على محو الكوارث كقوة الرغبة البالغة في الحياة، وتلبية احكام الحاضر الراهن، ولا حاجة اكثر من رضا لحظة حاضرة لصد الطوفانات التي تتجمع من الأحزان السابقة؛ وان عارضا طفيفا كيوم ربيع مشرق لينحي المأساة الى الوراء بعيداً عنا ولا يكلفنا اكثر مما فيها من المناقضة الساخرة، ان الطبيعة تعمل لمحو الشرور ومَسْحِها تاركة للانسان من بعدها موازنة من الرضا والقناعة»[١].

وخاطىء - ثانياً - لأننا لن نصل الى نتيجة حين نقيس آلام غيرنا بمقياسنا نحن، سواء كان هؤلاء الغير من الأطفال، أو من البهائم أو حتى من أمثالنا نحن الذين بلغنا مرحلة النضوج الجسماني والاستواء التكويني... فإن درجة الاحساس بالالم تختلف حتى عند افراد النوع الواحد، بل حتى في أجزاء الجسم الواحد... والعلم نفسه لا ينكر ذلك، بل يقره ويرجعه إلى مراكز الاحساس والجهاز العصبي، واختلاف تكوينها، أو تهيئتها، باختلاف الأفراد، واختلاف العوامل، واختلاف الظروف.

---

(١) انظر عقائد المفكرين للاستاذ العقاد ص٧٤ و٧٥ (مكتبة غريب).

ولناخذ على ذلك مثالا ... من العلم نفسه: يقول البرفسور هويلر وهو حجة في علم الحشرات الإجتماعي:

«أن المرء قد يقطع نَمْلَة من أمعائها وهي تتغذى من مشروب ما، يقطع ذلك بمقص، دون أن تحس هي بذلك، أو يؤثر ذلك في استمرارها في امتصاصها للمشروب[١]».

ولذلك وجد فريق من الناس يستعذبون العذاب، ويستريحون إلى الألم ومنهم من لا يُشَك في صدقه، كالسادة الصوفية...

بل ووجد فريق من الفلاسفة ينكرون وجود الشر على الاطلاق.

وبين هؤلاء وأولئك الذين أخطأوا في تحقيق الشر، وبالغوا في تصويره، وكان مرد ذلك الى «المقياس» الذي يقيسون به، والمنظار الذي منه ينظرون... يقول Alfred Russel Wallace ما نصه:

«الآن وقد أصبحت حروب الطبيعة معروفة ومعلومة لدينا اكثر من ذي قبل، فإن كثيراً من المفكرين الذين ركزوا على أنها كانت تنطوي على آلام وقسوة تقشعر من سماعها الابدان وتتأذى منها المشاعر الانسانية، قد أخطأوا في تصوير الحقيقة. ان هناك أسبابا كثيرة تجعلنا نعتقد ان هذه الصورة التي يرسمها المفكرون لهذه القسوة من الطبيعة، مبالغ فيها إلى حد كبير. ان هذه الآلام المفترضة، وهذا التعذيب وهذه القسوة ليس لها في الواقع وجود فعلي يعتد به وان ما صوره هؤلاء المفكرون من هذه الأشياء لا يعدو أن يكون انعكاسا لما يتخيلونه هم كأناس ارهفت مشاعرهم المدنية والتحضر. ان مقدار الالم الحقيقي الذي يفترض ان تعاني منه الحيوانات في صراعها على البقاء وتنازعها

(١) أنظر كتاب Social Life Among Insects صفحة ١٢.

عليه انما هو في الواقع شيء لا يكاد يلفت النظر مطلقاً[1].

فقياسنا لآلام الحيوان بمقاييسنا نحن، قياس فاسد على ما ترى.

وفاسد مثله قياسنا لآلام الأطفال بنفس المقاييس فإن الأطفال ناقصو التكوين بالنسبة لنا، ومراكز الاحساس فيهم، إما غير عاملة، أو غير مكتملة كما هو مقرر عند أهل الاختصاص.

أضف إلى ذلك عامل «الادراك» الذي له أكبر الأثر في تصور المرء لما قد يحيق به، وعليه يتوقف مقدار الجزع او القلق الذي يعتري المرء مما أصابه، والذي يزيد - عادة من شعورنا بالعطف عليه، ومن مبالغتنا في تصوير، أو تصور، ما يحس به هذا المرء.

وبذلك يتضح أننا نبالغ في تصور الشر الذي يحيق بنا، أو بأمثالنا من البشر فضلاً عن الاطفال والبهائم الذين ليس لهم ما لدينا من ادراك وخيال.

ولنفصل بعض ما أجملنا مما يستحق التفصيل:

تعتمد حكمة الشر في نظر الدين على الجزاء.

والجزاء يعتمد - مع العدل - على الحرية.

والحرية تحتاج إلى توجيه، وتحديد، والا أصبحت فوضى.

وكل ما جاء في الدين - أو في القرآن الكريم على الأخص - من تعليل للشر، لا يعدو هذه الأسس...

فالجزاء - العادل - يتطلب تمييز مراتب الناس وتعيين أقدارهم، لينال كل منهم الجزاء المناسب له - من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وتمييز المراتب والأقدار يقتضي «الامتحان»، أو ما يسميه القرآن «بلاء» أو «فتنة» - (ولنبلونكم

---

(١) أنظر كتاب Darwinism صفحة ٤٠.

حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) - أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم »...

ولما كان الجزاء في دار غير هذه الدار، كانت الدنيا هي حلبة السباق، ومحل الفتنة والبلاء، فكانت الشدة، ليتميز الصابر، وكان الموت ليعرف الشهيد، وكانت كل صفة من صفات الكمال، ويجانبها ما يناقضها من صفات النقص، لتتميز الأقدار، وتتعين المراتب، ولكلَ مرتبة يريد الانسان اجتيازها «امتحان» خاص، يتناسب مع درجتها في سلم الكمال، ولذا ورد في الحديث الشريف: «أشدكم بلاء الانبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل».

ولا معنى للامتحان، إذا لم يكن للممتحن حرية[1] بحيث يفعل ما يشاء أو يدع ما يشاء محتملا ما يترتب على الفعل أو الترك من نتائج «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد... ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً»، ﴿وهديناه النجدين﴾... ﴿انا هديناه السبيل اما شاكراً، واما كفورا﴾...

وما دامت هناك حرية، فلا بد من «اجتهاد»، وما دام هناك اجتهاد، فلا بد من خطأ، وما دام هناك خطأ فلا بد من توجيه، أو تربية، وما دام هناك توجيه أو تربية فلا بد من تأديب، والتأديب يتضمن الألم، المعبر عنه بالشر...

فالشر كما ترى يخدم غرضين: الغرض الأول تمييز المراتب والأقدار ليقوم الجزاء - في الآخرة - على أساس عادل، والغرض الثاني هو التربية والتأديب الذي يعيد المرء - إذا كان عاقلاً - الى الله كلما ابتعد عنه، ويرجع به الى السلوك الأفضل كلما تنكب جادته... يقول

(١) أنظر الفصل الخاص بالقضاء والقدر في كتابنا الجفوة المفتعلة بين العلم والدين. وهو فصل يؤيد مذهب اهل السنة والجماعة بالحجة الدامغة والمنطق.

الله تبارك وتعالى ﴿وبلوناهم بالحسنات، والسيئات لعلهم يرجعون﴾ - ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى - أي في الدنيا - دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾.

فالشر، إذن، هو الثمن الذي يدفعه الإنسان لهذه الحالة «الانسانية» التي تفرق بينه وبين غيره من جماد أو حيوان، أو بمعنى آخر هو الضريبة لهذه «الحرية» التي يمتاز بها الانسان، والتي تتضمن كل معنى فسر به العلماء «الأمانة» التي عرضها الله تعالى «على السموات والأرض والجبال فأبيْن أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان»...

ومسئولية هذا الشر تقع على عاتق الإنسان وحده، دون غيره «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير» - «ما أصابك من سيئة فمن نفسك» - «ولو أن أهل القرى آمنوا، واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» - «ولو أنهم أقاموا التوراة، والانجيل، وما أنزل اليهم من ربهم، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» - «وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا».

ولا يلقي القرآن الكريم هذا الكلام على عواهنه، وانما يأتي بالأمثلة الحية من التاريخ، ومن الواقع، لتقوم مقام البرهان على صحة ما يذهب اليه، ولتكون مصدر عبرة، وعظمة، لأولي الالباب «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، وأشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلّناهم بجنّتَيْهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خمط، وأثلٍ، وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور»...

وغير ذلك كثير، مما لا يستطيع التاريخ تكذيبه، ومما فصله القرآن في سور عدة، ومناسبات كثيرة، وأجمله في قوله: «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا، وجاءتهم رسلهم بالبينات، وما كانوا ليؤمنوا، كذلك

نجزي القوم المجرمين »...

ويضرب الله تعالى أمثلته من الواقع لتأكيد هذه القاعدة. نكتفي منها بقوله تعالى » هو الذي يسيركم في البحر، حتى إذا كنتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف، وجاءهم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » تأمل قوله تعالى « يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم[1] ».

* * *

والشر يمكن تقسيمه إلى نوعين، نوع يكون من فعل الانسان نفسه كالحروب، وما يدخل تحتها، وما يتسبب عنها، ونوع لا حيلة للإنسان فيه، كالأوبئة، والزلازل، وما يجري هذا المجرى.

وعمل « الدين » في النوع الأول واضح، وصلته به جلية، وليس هناك شك عند العلماء في أن النفوس لو صلحت أو أصلحت لانقرضت الحروب أو قلت، أو - على الأقل - اختصرت هي وأخطارها في أضيق دائرة، وكلما اتسعت الشقة بين الناس وبين الدين زادت الحروب عددا، وضراوة، ولا أدل على ذلك من الحربين العالميتين الأخيرتين، وموجة الالحاد العاتية التي طغت على العالم قبيل نشوبها، والتي تتهدد العالم بحرب ثالثة لا تكاد تبقي، ولا تذر...

والعلماء الذين يريدون أن يجنبوا الإنسانية ويلات هذه الحرب لا يجدون وسيلة أجدى من اصلاح « النفوس »... يقول العلامة الفيلسوف جود:

« ان الدكتور « بروك كيشولم » مدير منظمة الصحة العالمية التابعة

---

(١) راجع ردودنا على ما قد يثار على هذا التفسير من اعتراضات فيما سبق من الفقرات.

لليونسكو يرى - والحق ما يراه - أن الحروب تنبع من « القلب » « الإنساني »، ذلك لأن الإنسان برغباته الفاسدة، وعزيمته الشريرة، وغرائزه المدنسة، يفتح الباب على مصراعيه للحروب، ولذلك فإن العلاج ينحصر في تصحيح هذه النزعات الشريرة، المغروسة في طبيعته البشرية، أو على الأقل توجيهها الوجهه الصحيحة[١].

ثم مضى « جود » إلى القول، « أن هذا البحث الذي كتبه الدكتور « كيشولم » والذي يدور كله حول هذه المشكلة، أثار ضجة صاخبة في المحيط العلمي، واختلف معه « النقاد » في أشياء، واتفقوا معه على أشياء، ولكنهم أجمعوا معه على أن مشكلة الحروب هي مشكلة إصلاح النفوس[٢] ». - أقول ومهما تتشعب نواحي إصلاح النفوس، وتتعدد وسائله، فإنها لا تخرج من إطارها العام، الذي هو - أولا وآخرا - الدين... وهذا الذي قال به هذا « الدكتور »، ووافقه عليه جمهرة النقاد من أهل الاختصاص نادى به الاسلام قبلهم بأربعة عشر قرنا... (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). قرآن كريم.

والذي يهمنا من كل ذلك وضوح العلاقة بين الحروب والنفوس.

صحيح أن الصلة بين « القانون » الروحي - أو الاخلاقي - وبين الصنف الآخر الذي حددناه من الشر، والذي يتضمن ما لا يدخل في دائرة فعل الانسان، كالأوبئة، والبراكين... هذه الصلة فعلا غير واضحة، ولا يستطيع العقل - أو لم يستطع بعد - أن يثبتها أو يتبينها، وهذا لا يستلزم أنها غير موجودة، بل يرجع إلى أمرين، أحدهما، أو كليهما: -

الأمر الأول:
أن هذه الصلة من الأمور المعنوية التي تخرج عن نطاق « العلم »،

---

(١) أنظر كتابه Recovery Of Belief ص٦٢.
(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة.

ولا تدخل في ميدانه، فهي ليست من اختصاصه حتى يتعرض لها بنفي أو إثبات:

الأمر الثاني:

وعلى فرض ان هذه الصلة مما يدخل في دائرة العلم بطريق مباشر، أو غير مباشر، فإن المسلّم به أنّ العلم ما يزال في مرحلة الطفولة، وان الحقائق التي كشف عنها - حتى في الميدان المسلم له به - ما هي الا برهان على أنه ما يزال في بداية الشوط. وقد مر بك ما يذهل العقل من مظاهر الضبط والتنظيم التي يخضع لها الشر، والتي تجعله أبعد ما يكون عن الفوضى.

بهذا أتمنى أن أكون قد أوضحت أبعاد هذه المشكلة، وحددت موقف العقل الذي ينبغي أن يكون منه، ولئن أصبت في ذلك فلن أصبو إلى أكثر منه. ذلك أن «الشر» هو المشكلة الجلى، أو مشكلة المشاكل، كما يسميها أستاذنا العبقري الفذ الأستاذ العقاد، عليه الرحمة الواسعة، بل أنها الصخرة التي تحطمت على جوانبها - وتتحطم الى الأبد - كل جهود الفلاسفة الالهيين، والمفكرين، بما فيها هذا الجهد المتواضع الذي بذلته في هذه الصفحات.

هذا ما ينبغي أن نسلّم به.

الا أن الحطام الذي يتناثر على جنبات هذه الصخرة - مما قلت - كاف فيما أعتقد لأن يحمل الانسان إلى بر السلامة، والنجاة، والإيمان، بخلاف جهود الملاحدة التي تستحيل كما رأيت - هشيما تذروه الرياح: لا يحمل المتشبثين به الى البر، ولا يحول دونهم والغرق إلى أعماق الضلال...

إن كل ما يهم المرء من أمر الشر هو:

أنه يجري على ضوابط، وليس شيئا فوضويا كما يتخيل الملاحدة.

وأن الله قادر على إزالته لوشاء، فقد خلق عالم الملائكة وخلق الجنة، وليس فيهما شر، وهذا ما لا يستطيع العلم أن يرفضه، لأنه لا يدخل في ميدانه.

وأن تخيلاتنا وأحاسيسنا تضيف إلى الشر الذي يصيب الأطفال والبهائم بل وأمثالنا من الراشدين تضيف إليه الكثير مما ليس منه؟.

فإذا بقي بعد ذلك منه ما لا نستطيع الإجابة عليه، فما أكثر ما في الكون - من غير الشر - ممّا لا يزال العلم عاجزا أمامه، والعقل خائر القوى تجاهه مهيض الجناح.

وهذه حقيقة أصبحت من المعلوم بالضرورة، وان جهلها كثير من عوام المثقفين.

فلنفرغ - إذن - من حل ما هو دون الشر من ألغاز الكون ثم بعد ذلك لنقل في الشر ما نشاء.

مسكين مسكين هذا الإنسان، ما أكثر ما يجهل قدره.

الفصل الثاني

العوامل التي ساعدت على التفسير المادي لنظرية التطور العضوي

ثانياً - علم الأديان المقارنة

وهو علم جعل الأديان جميعاً في نظر الملاحدة أسطورة من الأساطير وصور لهم الاله الذي يؤمنون به خرافة من الخرافات تقلبت في شتى المظاهر - حسب مدارك الناس - وتطورت في شتى قوى الطبيعة المختلفة، إلى أن انتهت أخيراً بالاله الواحد، حين بلغ العقل القمة من هذه الناحية، ووصل التطور الفكري في هذا المجال نهايته.

ولقد كان لهذا العلم خطر بالغ، وأثر عميق، يظهر لك جلياً من قول الأستاذ محمد فريد وجدي «ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي تساوره فتغلب عليها ودالت الدولة اليه في الأرض فنظر نظرة في الأديان، وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة الى عالم الميثولوجيا. Mythology (الأساطير)، ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض، واتصال اساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه، ويقف على صيانتها جهوده، غير مدخر في سبيلها روحه وماله. وقد اتصل الشرق الاسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية، فوقف فيما وقف على هذه الميثولوجيا MYTHOLOGY ووجد دينه ماثلا فيها. فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر

أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الالحاد متيقنا انَّه مصير اخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية[١] ».

ومناقشة هذا العلم في تفاصيله المختلفة تخرج بنا عن الغرض من هذا الكتاب فلنكتف بما يهمنا مما يرتبط بالموضوع الذي نحن بصدده...

يقول هذا العلم ان الإنسان عبد المظاهر والقوى الطبيعية. وما زال يتدرج في ذلك حسب تقدمه في الوعي والإدراك حتى تم له النضوج العقلي فوصل عندئذ الى أرقى نوع من العبادة، عبادة الاله الواحد الذي تخيله وليس له وجود حقيقي.

وإذا سلمنا بذلك لهذا العلم، فإن هذه النتيجة لا تملك أن تنفي أنه بجانب هذا الاله « الطبيعي » المخلوق، كان هناك اله واحد حقيقي، خَلَق ولم يُخْلَق، وطَوَّر ولم يطوَّر آمنت به القلة على أيدي رسل صادقين، ان شك الناس في معجزاتهم فلن يشكوا - عند دراسة سيرهم - في صدقهم وايمانهم وتضحيتهم بكل غال ونفيس في سبيل ما كلفوا بتبليغه للناس... بل أن هؤلاء الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - ما جاؤا الا لمحاربة عبادة غير الله، في أية صورة من صورها « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون ».والقصص التي قصها القرآن الكريم عن سيدنا ابراهيم، ونوح وصالح، وثمود وغيرهم من المرسلين، تصور الصراع العنيف بين دعوة هؤلاء الرسل الى عبادة الاله الواحد الحقيقي، واصرار قومهم على عبادة الآلهة المزيفة مما وجدوا آباءهم عليه. فإذا صحت نتيجة الأديان المقارنة من هذه الناحية، فإن الرسل ما ارسلوا الا ليصححوا هذا الوضع الخاطىء المشين.

---

(١) نقلا عن كتاب « موقف العقل والعلم الخ » تأليف المرحوم مصطفى صبري ص٢٤ طبعه عيسى الحلبي سنة ١٩٥٠م.

وحتى على فرض أن تطور فكرة الاله في مراحلها المختلفة، كان عملاً أرضياً محضاً. لم تتدخل «السماء» فيه بصورة مباشرة، إلى أن انتهت بالاله الواحد المتخيل فإن ذلك لا ينفي - على أسوأ الفروض - ان الله أرسل رسله بالأديان السماوية عندما اكتملت عقول الناس، ونضجت مداركهم، وأصبحوا قادرين على فهم «الوحدانية» فتكون النقطة التي انتهى اليها تطور الفكرة عن الاله، هي نقطة البدء في الرسالات الإلهية، والأديان السماوية، وقد نجد على ذلك - إن صح - دليلا من الدين نفسه: يقول الله تبارك وتعالى «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» قوله تعالى - أمة واحدة، أي متفقين على الباطل[1].

على أن الأساس الذي يقوم عليه علم الأديان المقارنة هو أن «التعدد» سبق «الوحدانية»، ومن هذا المنطلق تتفرع جميع نتائجه، وفي هذه الدائرة تدور كل جهوده... على أنه لا يستطيع أن ينفي أن العكس هو الصحيح، أي أن الوحدانية سبقت العدد... صحيح أن «الوحدانية» سرعان ما تأثرت بعوامل الشرك المتعددة (التي تطورت بدورها بتطور العقول)، وصحيح أن آثار الوحدانية لم تظهر جلية في المخلفات الإنسانية، كما ظهرت آثار التعدد والشرك، ولكن هذا لا ينفي أن الوحدانية أسبق. إن «الوحدانية» ايمان بالغيب، والعقل - وبخاصة البدائي، من طبعه الايمان بالمحسوس، والمشاهد الملموس، وبذلك ما جاءهم رسول يدعو بالوحدانية، الا نازعهم طبعهم المتأصل، إلى عالم الحس، ألم تر إلى بني اسرائيل حين جاوز الله بهم البحر «فاتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى أجعل لنا الها كما لهم آلهة[2].. بل ألم تر الى قوم موسى إذ «أضلهم السامري[3]... فأخرج لهم

(١) أنظر تفسير الصاوي على الجلالين وغيره - الآية ٢١٣ من سورة البقرة.
(٢) من آية ١٣٨ من سورة الاعراف.
(٣) من الآيات ٨٥ و٨٨ و٩٠ و٩١ من سورة طه على التوالي.

عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى[١] ... ولما قال لهم هرون «يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى[٢]».

ولذلك لم يكن غريبا أن تطغى مظاهر الشرك والوثنية طغيانا لم يدع الفرصة لظهور آثار الوحدانية بنفس الصورة، أو بصورة قريبة من الصور التي ظهرت بها آثار الشرك والتعدد في المخلفات الإنسانية يقول الله تبارك وتعالى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾ الى غير ذلك من الآيات...

لكن هذا لم يمنع عنصر «الوحدانية» من الظهور، وسط هذا الخضم المضطرب، حتى في عقائد القبائل المتأخرة من أفريقيا وغيرها، حتى اليوم[٣]، مما يضعف من حجج الملاحدة التي يتشدقون بها، ويستندون عليها، إلى أبعد الحدود.

على أن الدراسات أثبتت أن «الوحدانية» لم تصاحب «التعدد» فحسب، بل كانت أسبق الى الوجود منه فالبحوث التي قام بها Lewis Spence وغيره تؤكد «ان فكرة» «الاله الواحد» صحبت الانسان منذ فجر التاريخ، وانها سبقت فكرة «التعدد» وتركت بصماتها واضحة فيه[٤]»... وغني عن البيان أن الدكتور ماكس ميلر، مكتشف اللغة السنسكريتية أثبت «ان الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين، بغيا بينهم[٥]».

ويمكن تلخيص نتائج الدراسات في الأديان المقارنة فيما يلي[٦]

---

(١) و(٢) ٨٥ و٨٨ و٩٠ و٩١ من سورة طه على التوالي

(٣) أنظر Comparative Religion للدكتور Boquet ص٤٧.

(٤) أنظر مجلة Islamic Review عدد ديسمبر ١٩٥١م صفحة ٣٦ فما بعدها.

(٥) أنظر يوم الاسلام: لأحمد أمين صفحة ١٥.

(٦) نقلا عن كتاب عقائد المفكرين في القرن العشرين للاستاذ العقاد ص٦٤ (مكتبة الانجلو المصرية).

أولا : «أنها أثبتت وجود أديان ليس هناك ما يمنع أنها في جوهرها من وحي الله، وان شابتها خرافات من فعل السحرة والكهان، وبذلك انحرفت الأمم البدائية في حالاتها عن طريق ذلك الوحي القديم».

ثانيا : «أنها لم تنف وجود أديان موحاة من الله».

ثالثا : «زودت طائفة كبيرة من الباحثين بالحجة القوية على ضرورة التدين، وأنه بديهة مركبة في طبيعة البشر، ولولا ذلك لما أجمعوا على التدين متفرقين في أرجاء الأرض مع اختلاف الأزمان وتفاوت الحضارات، وتباعد الثقافات، وطبقات التفكير».

رابعا : «أنها شككت العقول زمنا في أصول الاعتقاد، ثم أصبحت في القرن العشرين سندا لمن يؤثرون الاعتقاد، ويشككون في الانكار».

ويضيف الأستاذ العبقري الفذ العلامة العقاد الى ذلك أن الدين الاسلامي لا يمكن أن ينسجم في الإطار الذي يفرضه علم الأديان المقارنة فإن الآراء التي يقول بها الباحثون في هذا العلم «بها نقص يتبين للناظر فيها كلما قابل بينها وبين الحقائق الثابتة عن تاريخ الاسلام، فلا مناص من تغييرها، أو تغيير التاريخ الثابت الذي لا ينكرونه إذا عادوا اليه بالتمحيص النزيه[1]».

من هذا يتضح ان الاساس الذي يرتكز عليه علم الأديان المقارنة، مما يحتكم اليه الملاحدة، أساس فاسد، وأنه لا يعتمد عليه الا مكابر أو مخدوع، بل أنه أجدر أن يكون سلاحا للإيمان، يرتد في نحور الملحدين، فضلا عن أن يكون عونا على التفسير المادي لنظرية التطور العضوي - أو حتى غير العضوي.

(١) أنظر ما يقال عن الاسلام للعقاد - صفحة ٤٨ فما بعدها (مكتبة دار العروبة).

الفصل الثالث

العوامل التي ساعدت على التفسير المادي لنظرية التطور العضوي

ثالثاً: المسيحية

غني عن البيان أنّ الديانة - السماوية؟ - التي نشأت النهضة العلمية الحديثة في أحضانها، وترعرت بين ظهرانيها، وتبخترت تحت أفيائها وظلالها، إنما هي الديانة المسيحية، وغنى عن البيان أيضا أنّ الالحاد - في صورته الحديثة - إنما صحب هذه النهضة منذ البداية، وواكب مسيرتها، ورافقها مرافقة الظل، حتى لكأنه ثمرة من ثمراتها، أو لازم من لوازمها، بل حتى أننا لنجد الملاحدة أنفسهم إنما يبنون إلحادهم على تصوراتهم لنتائج هذه النهضة، واستنباطاتهم من كشوفها، ومحصلاتها ومعطياتها العلمية والفلسفية.

فالمسئولية عن هذا الالحاد إنما تقع على عاتق المسيحية، وحدها، دون غيرها من الديانات التي كانت في معزل عن هذا المعترك، ومنأى عن هذا المجال.

فماذا فعلت «المسيحية» - والحالة هذه - لهذا اللون من الالحاد الربيب منذ نعومة أظفاره، وماذا أعدّت لمقاومته قبل أن يقف على قدميه، ويسير في خطاه الواسعة الحثيثة في محاولة للفتك بها، وبغيرها من الأديان والقيم السماوية؟ هل كان لديها الترياق المضاد لسمومه، أو

على الأقل «الحصانة» التي تقيها من سمومه؟ هل كان لديها - كدين يحارب الالحاد أول ما يحارب - السلاح والعتاد الروحي والفكري الذي تُجهزبه على هذا العدو اللدود الشرس، قبل أن يستشري خطره، ويستفحل أمره، أم أنها أمدَّته من طبيعة تكوينها بالسلاح الذي يقضي به عليها أوّلاً، ثم يستخدمه من بعدها في القضاء على بقية الأديان؟ إن استطاع الى ذلك سبيلاً. هل في المسيحية الحاضرة ما يحمل على الإيمان بها كدين سماوي؟ هل تجتمع فيها العناصر أو الأصول التي لا بد من توفرها، ليقتنع من يريد اعتناقها بأنها منزلة من الله؟ وهذه العناصر او الأصول، تتمثل في الإجابة على الأسئلة التالية: -

أولا: هل الانجيل المتداول اليوم هو نفس الكتاب الذي انزل على سيدنا عيسى عليه السلام، وهل هو ثابت السند التاريخي، وأنه لم يغير، ولم يحور، ولم يحرف، لأن المتدين - إذا كان عاقلا - انما يقصد من تدينه ان يرتبط بالسماء، ويدور في فلكها، ويهتدي بنورها، ويأتمر بأمرها، وأن تكون صلته بالأرض في حدود الصورة الموحاة من السماء.

ثانيا: هل العبادات المعمول بها صدرت عن الله، وجاءت من عند الله، ذلك لأن العبادات انما هي المعارج التي اختارها الله ليعرج عليها العباد اليه، وليتصلوا به الصلة الخاصة، فإن الصلة العامة بين العباد وربهم يستوي فيها كل الناس، فهو ربهم جميعا، وخالقهم جميعا، ورازقهم جميعا الخ الخ، حتى وإنْ أنكروا ذلك، أو جحدوا به؛ أما الصلة الخاصة، صلة التقرب من الله، صلة الحَظوة بالله، صلة الانس بالله، صلة الجمع على الله، فلا يعقل أن تكون الا على النحو الذي يرتضيه هو، ويختاره هو، لا على النحو الذي يلفقه العباد، أو يتخيلونه في أي دين كان، المسيحية أو غيرها.

ثالثا: هل كل ما في الانجيل حق لا يعتريه الباطل، إذا وزن بميزان العقل البشري. فإذا كان ما جاء فيه بعضه باطل، أو كله باطل. فإن هذا يقطع الصلة بين هذا الدين، وبين الله، فإن الله حق، وسمى نفسه الحق، ولا يصدر عن الحق الا حق... لا يلزم من ذلك أن يكون كل ما جاء في الانجيل خاضعا للبرهان، فإن العقل البشري يقصر أن يحيط بكل شيء؟ إنما الذي لا بد منه الا يكون فيما جاء به ما يرفضه العقل، وينقضه العلم، ويكذبه الواقع. وما يسري على المسيحية من هذه الوجهة يسري على أي دين سماوي آخر بما في ذلك الاسلام.

رابعا: هل السيد المسيح القدوة الكاملة لكل من يعتنق المسيحية، ولا يتأتى ذلك الا إذا كان في نظر من يعتنق دينه الذي جاء به، هو أعظم من كل الناس، وان تستمد عظمته هذه من سيرته، وكفاحه، وسموه في نفسه، وفي ما يقدمه الدين الذي جاء به من خدمات للبشرية جمعاء - وهذا ينطبق على أي رسول جاء بدين سماوي.

خامسا: هل في العقيدة التي اعتمدها هذا الدين ما يعجز العقل، فإن «العقيدة» في حد ذاتها وثيقة الصلة بالغيب، وقد تكون في أكثر عناصرها وأهمها غيبا محضا، والغيب في حد ذاته معجز للعقل بطبيعته، فهل المسيحية راعت ذلك في عقيدتها، أم زادت الطين بلة... نفس الشيء ينطبق على الأديان السماوية الأخرى بما في ذلك الاسلام.

سادسا: هل هذا الدين - المسيحي - يشتمل على العناصر الأساسية التي تجعله صالحاً لكل زمان ومكان، والا كان دينا مؤقتا، لزمان مخصوص، وأقوام مخصوصين.

والإجابة على هذه الأسئلة بطبيعة الحال حساسة. ولا يهمنا أن تكون في صالح المسيحية أو لا تكون ما دام معتنقو المسيحية مؤمنين بمسيحيتهم راضين بها، ولكن نحب أن نضع امام الدارسين للأديان بعض المراجع التي يجدون فيها الإجابة على كل سؤال من هذه الاسئلة.

(١) للإجابة على السؤال الأول ارجع - على سبيل المثال - إلى: -

(أ) كتاب Outline of History للكاتب الانجليزي المعروف H. G. Wells ص ٥٢٤

(ب) دائرة المعارف البريطانية المجلد الخامس طبعة ١٩٥٣م صفحة ٦٣٦.

(ج) Changing Aims in Religions Education للبرفسور Edwin Cox صفحة ٧٦ (طبعة ١٩٧١ م).

(د) آراء جني بير (مستشرق فرنسي مشهور) وقد نقلها الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه «أوربا والاسلام» صفحة ٢٧.

(٢) للإجابة على السؤال الثاني انظر اقوال المستشرق الأمريكي الكبير «بودلي» والتي نقلها عنه الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه «الاسلام بين الانصاف والجحود» صفحة ٣٢ (سلسلة مع الاسلام).

(٣) للإجابة عل السؤال الثالث انظر:

(أ) دائرة المعارف البريطانية صفحة ٦٣٦ المجلد الخامس طبعة ١٩٥٣ م.

(ب) Changing Aims in Religious Education صفحة ٢٨ - طبعة ١٩٧١ م. لمؤلفه Edwin Cox.

(ج) ما نقلته جريدة اخبار العالم الاسلامي (السعودية) في عددها رقم ٥٢٣ والصادر بتاريخ ٢٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ عن الدكتور موريس بوكاي في كتابه «القرآن والتوراة والعلم».

(٤) السؤال الرابع سنتولى الجواب عنه فيما بعد لأننا سندفع عن السيد المسيح عليه السلام بعض ما وجهه اليه بعض كبار الفلاسفة المؤمنين بالمسيحية ونعني به الفيلسوف الغني عن التعريف جود - وبعض الملاحدة من أصل مسيحي مثل الفيلسوف المشهور بيرتراندرسل.

(٥) للإجابة على السؤال الخامس انظر:

(أ) كتاب «مصير البشرية» ترجمة الاستاذين احمد عزت طه وزميله صفحة ١٩٦.

(ب) اقوال الاستاذ Alexander Russel Webb (وهو امريكي اسلم) وتوجد اقواله هذه في كتاب «لماذا اسلمنا» ترجمة الشيخ قاسم حمد الثاني وزير المعارف القطري - صفحة ٥٥.

(ج) اقوال «نيتشه» وهو اشهر من نار على علم نقلها الاستاذ محمد الغزالي في كتابه «قذائف الحق» صفحة ١٤٩.

(٦) للإجابة على السؤال السادس (ويدخل فيه التمشي مع العقل، والتوافق مع العلم الحديث، مع الاسهام في حركات التطور الانساني، وعدم الوقوف ضد ما ينفع الانسانية منها) - للإجابة على هذا السؤال انظر:

(أ) اقوال الاستاذ فرح انطون في مجادلته للأستاذ محمد عبده مما نقله الاستاذ مصطفى صبري في كتابه «موقف العقل

والعلم والدين » ص ٢٢٦ من الجزء الأول و ٣٥ من الجزء الثاني.

(ب) Changing Aims in Religions Education ص ٤٥.

(ج) كتاب Recovery of Belief تأليف الفيلسوف البريطاني المشهور « جود » صفحة ٢٣٨.

(د) اقوال جون وبستر (كان مسيحياً بروتستانتياً) مما تضمنه كتاب « لماذا أسلمنا » ص ١٢٥.

(هـ) أقوال ما ذكره « ماومان » أحد رجالات الفكر الغربيين في كتابه « رسائل عن الدين » مما نقله عنه الأستاذ سعد جمعة في كتابه « الله أو الدمار » ص ٢٤٧ (دار الكتاب العربي).

(و) كتاب Why I am not Christian تأليف بيرتراندرسل ص ٢٤ و ٢٥.

هذه الإجابات في المراجع التي ذكرنا منها طرفا على سبيل المثال لا الحصر تهم الباحث والدارس، مسيحيا كان أو مسلماً، كما أن الأسئلة التي عرضناها اسئلة ينبغي ان يعرف الإجابة عليها كل متدين، أيا كانت ديانته، حتى يستطيع أن يبني ايمانه بالدين الذي يعتنقه على أساس من العقل والمنطق، لا مجرد « الوراثة » أو مطلق « التعصب »، كما هو المشاهد من معظم الناس في جميع الأديان السماوية، وغير السماوية على السواء، مما يستوي فيه المثقفون وغير المثقفين.

ولنعد الى صُلْبِ الموضوع، وهو الدور الذي قامت المسيحية به في مُحاربة الالحاد، أو مساعدته.

والواقع أن جوهر « المسيحية » لا يُعقل أنْ يساعد على الالحاد ان لم يقف في سبيل انتشاره، وانما جاءت الطامة من الزيادات التي أُدخلت

على المسيحية الخالصة النقية، يقول العلامة العالمي الكبير «ليكونت دينوي» «إنَّ ما أضافه الإنسان إلى الديانة المسيحية، والتفسيرات التي قدَّمها، والتي ابتدأت منذ القرن الثالث، بالإضافة إلى عدم الإكتراث بالحقائق العلمية كل ذلك قدم للماديين والملحدين أقوى الدلائل المعاضدة في كفاحهم ضد الدين[١]» فالزيادات التي أضافها الإنسان الى المسيحية الخالصة هي وحدها المسئولة عن الهجمات التي توجه للمسيحية من الداخل والخارج على السواء، وربما خطر على البال ان هذه الزيادات هي جزء ضئيل جداً بالنسبة إلى المسيحية «الأم» إذن لاختصر الخطر وانكمشت دائرة الضرر، الا أن المؤسف أن العكس هو الصحيح يقول «ليكونت دينوي» قد تجرأ أسقف كبير هو الدكتور وليام تامبل أسقف كنيسة كنتربري (الكنيسة الانجليزية الأولى) على القول بأن من الخطأ الفاحش أن الله وحده هو الذي يقدم الديانة أو القسط الأكبر منها[٢]».

هذا من حيث الحجم.

أما من حيث القيمة «التي يمكن أن تؤثر في الالحاد سلباً او ايجاباً فيكفي أن يصفها رجل في مكانة ليكونت دينوي بأنها «خزعبلات[٣]».

على ضوء هذا تستطيع أن تدرك ما قدمته المسيحية (أو الجزء الأكبر المضاف اليها) من أياد للالحاد، وما مهدت له كي تسهل عليه مهمته، وما زودته به من سلاح وعتاد كانت هي أولى ضحاياه[٤].

وليتها وقفت عند هذا الحد.

---

(١) انظر كتابه «مصير البشرية» ترجمة الاستاذين أحمد عزت طه وزميله ص٢٠٥و٢٠٦.

(٢) أنظر كتاب مصير البشرية صفحة ١٥٢ (مترجم).

(٣) المصدر السابق صفحة ٢٠٥و٢٠٦.

(٤) لتكون لك فكرة عن ذلك اقرأ: أ- Recovery Of Belief صفحة ٢١ طبعة ١٩٥١م. (ب) وكتاب اللورد هدلي The Affinity Between Original Church of Christ & Islam صفحة ١٩.
(ج) وكتاب البروفسور ادون كوكس Changing Aims in Religious Education. صفحة ٢١ و ٢٢.

بل أنها أجرمت مرة أخرى حين قدّمت كل عون للالحاد بطريق غير مباشر أيضا. وذلك بالصورة البشعة التي رسمتها للإسلام، وركزتها في قلوب الغربيين بل حتى في ضحاياه من المسلمين - مستخدمة في ذلك كل وسائل الإعلام والتعليم، دون هوادة وبغير حق...

مع أن الاسلام هو الدين الوحيد الذي تؤهله مقوماته وخصائصه لدحر الالحاد والحاق شر هزيمة به. بل حتى الشيوعية - وهي أوسع من الالحاد لكنها لا تقوم الا عليه، نعم حتى الشيوعية ما كان يمكن أن تجد شبرا واحداً في أرض يظلها الاسلام الصحيح،(لا الاسلام الذي شوهته الصليبية الحاقدة والاستعمار الجشع الجبان) ولنكتف هنا بما قال Rofe الانجليزي المولد من أبوين احدهما يهودي والآخر كاثوليكي، الا أنه أسلم وسمى نفسه «حسين» يقول هذا المصلح الإجتماعي البريطاني «يمكنني القول بأن الشيوعية السوفيتية الحديثة ما كان لها أن تولد في ظل دولة اسلامية[1] ».

ولنرجع إلى الحرب الضارية التي شنتها الصليبية الحاقدة على الاسلام، لنرى كيف سمَّمَتْ في وجهه الجو، وكيف وضعت في طريقه الالغام، وكيف شوهت صورته عن طريق التضليل والتدجيل، وبذلك أضافت يداً أخرى من أياديها البيضاء على الالحاد (وعليَّ وعلى أعدائي يا ربي).

واقرأ ما يقوله «محمد اسد» المستشرق الذي أسلم عَنْ تسامح المسيحية (اوربا كلها) مع الديانات، مع موقفها المتزمت الحاقد ضد الاسلام دون غيره، وكيف ان «أبرز المستشرقين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الاسلام[2] ».

---

(١) لماذا أسلمنا - صفحة ١٤٣. منشورات وزارة معارف قطر - الطبعة الاولى ١٣٨٩ هـ١٩٦٩م.

(٢) أنظر الاسلام على مفترق الطرق ص٥١ فما بعدها لمؤلفه محمد اسد «مترجم».

لقد ناصبت المسيحية الاسلام العداء الصارخ دون غيره من الديانات وأَكنَّتْ له في نفسها أشد البغض والحقد، يقول المستشرق الالماني بيكر Becker «إنَّ هناك عداء من النصرانية للإسلام بسبب أنّ الاسلام عندما انتشر في العصور الوسطى اقام سداً منيعاً في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها[(١)] ».

ولم يقف الأمر عند ما يخص المسيحية وحدها، ولا مع العداء وحده، بل امتد الأمر الى دائرة اوسع، بسبب هذا العداء. تقول مجلة العالم الاسلامي التي تصدر باللغة الانجليزية The Muslim World «ان شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف أَسباب منها: ان الاسلام منذ أن ظهر في مكة، لم يضعف عدديا بل دائما في ازدياد واتساع ثم ان الاسلام ليس دينا فحسب بل: ان من اركانه الجهاد، ولم يتفق قط ان شعبا دخل في الاسلام ثم عاد نصرانياً[(٢)] ».

بل ان الخوف الذي يساور الغربيين من الاسلام ينبغي ألاَّ يساويه، أو يدانيه اي خوف من أي شيء آخر، مهما كان ذلك الشيء يقول «لوريس براون» «لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة، ولكن بعد الاختبار لم نجد ما يبرر هذا الخوف. كنا نخوف بالخطر اليهودي، والخطر الشيوعي، والخطر الأصفر، مـــــــــع أنّ الخطر الحقيقي يكمن في الاسلام[(٤)] ».

ومن أجل ذلك استُخْدِمَ التبشير «الصليبي» لأداء مهمتين فأصبح يعمل «على إظهار الأوروبيين في نور جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة المتمركز فيها[(٤)] ».

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور البهي صفحة ٥١٦.

(٢) المصدر السابق صفحة ٥١٥ نقلا عن عدد يونيو ١٩٣٠ من المجلة المذكورة تحت عنوان (الجغرافية السياسية للعالم الاسلامي).

(٣) الله أو الدمار تأليف دولة سعد جمعة صفحة ١١١ (دار الكاتب العربي).

(٤) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار للدكتور البهي - من كلام كالهون سيمون نقلا عن كتاب التبشير والاستعمار ص٣٢.

وهذا بدوره يقتضي أن تُفتح كل الجبهات لمحاربة هذا العدو، العاتي اللدود يقول المستشرق المعاصر «ولفرد كانتول سمث» في كتابه Islam In Modern History «إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية، والعلمية، والفكرية، والإجتماعية، والإقتصادية لحرب الاسلام، وانه خلق اسرائيل في قلب العالم الاسلامي كجزء من هذا المخطط المرسوم[1]» - ويُفهم من كلام المستر «بنروز» - الذي كان رئيساً للجامعة الأمريكية في بيروت - أن هذه الأسلحة جميعا أخفقت، الا سلاحاً واحداً. إذ «أن المبشرين يمكن ان يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين[2]»، لأن الاسلام فيما يقول المبشر Reid «بنى ذلك الجدار الشاهق (ويسميه أيضا الحاجز الصلب) حول اتباعه ليحميه في داخله، ويترك المبشر تائهاً خارجه، إنه جدار أثبت مع الأسف أنَّ تسلقه أو اختراقه مستحيل[3]» - إلا أنّ هناك سلاحا واحداً هو العلم» برهن على أنه اثمن الوسائل التي استطاع المبشرون ان يلجأوا اليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان[4]» كما يقول المستر بنروز وينبغي - كما حدث فعلا - استخدام هذا السلاح لتنصير المسلمين في غير سوريا ولبنان، ما دام هذا السلاح قد ثبتت فعاليته، وظهرت نتائجه!

وهذا الكلام يُوحي إيحاءة خبيثة إلى أنَّ الاسلام يجافي العلم، وان المسلمين يمكن ردهم عن الاسلام باسم العلم، وبسلاح العلم، وهو كلام باطل، وصحيح في نفس الوقت: باطل إذا أريد بالعلم هنا معناه الصحيح، الخالي من الأغراض، فإن الاسلام لا يجافي هذا النوع من العلم، بل أنه يزيد المسلم تمسكاً بدينه، واعتزازا بكتابه المقدس

---

(١) الله او الدمار لدولة سعد جمعه صفحة ٩٧ (دار الكاتب العربي).
(٢) المصدر السابق صفحة ١٠٨
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.
(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

الشريف... وليس هنا مجال البرهان على ذلك، وصحيح إذا أريد بالعلم هذه السموم التي ينفثها الغرب باسم العلم، وما هي الا تدجيل وتضليل، واليك بعض أمثلةٍ من هذا العلم!

يقول المسيو كيمون في كتابه «باثولجيا الاسلام» - «إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك فيهم فتكاً ذريعاً. بل هي مرض مروِّع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الانسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منها إلا ليسفك الدماء. ويدمن معاقرة الخمور، ويجمح في القبائح. وما قبر محمد في مكة الا عمود كهربائي يبث الجنون في رؤس المسلمين، ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر الهستريا (الصرع) العامة والذهول العقلي[1]».

هذا هو العلم الذي يقصدونه، وهذه هي الطريقة العلمية في الكشف عن حقائق التاريخ.

ولندع «الكونت هنري دي كاستري» يتكلم عن هذا «العلم» العجيب فيما يختص بالاسلام يقول في كتابه «الاسلام خواطر وسوانح» إنَّ هؤلاء «العلماء» «ذهبوا إلى أن محمداً وضع دينه بادعائه الالوهية[2]» و«ان محمداً الذي هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان، كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد الكرلوقنجيون[3]» و«ذهبوا الى أن صورة «مـــاهوم» - يعنون محمداً - كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع، وأدق إتقان[4]». وان «جيرد نوجن» نفسه - وهو رجل جد - يذكر أن محمداً مات في نوبة سكر بيِّن، وان جسده وجد على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير[5]».

(١) تحت شمس الفكر - لتوفيق الحكيم ص٢٢ - الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٤م.

و(٢)(٣)و(٤)كلها من كلام «هنري دي كاستري المشار اليه - أنظر اوروبا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمود صفحة ٤٣.

(٥) نقلاً عن كتاب التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام - للشيخ محمد الغزالي ص١٣٢.

كما أن هؤلاء العلماء وقفوا مع القرآن الكريم نفس هذا الموقف العلمي « الرائع » يقول المبشر المعروف « جون تاكلي » يجب أنْ نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في يد المسلمين، ضد الاسلام نفسه لنقضي عليه القضاء المبرم، حيث نري هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وان الجديد فيه ليس صحيحاً[1] » - يقول John Webster الانجليزي البروتستاني الذي اعتنق الاسلام وتسمى « محمداً » « حدث عند اقامتي في استراليا أنْ طلبت نسخة من القرآن الكريم من مكتبة سدني العامة فما إن قرأت مقدمة المترجم حتى لمست التعصب ضد الاسلام مكشوفاً مفضوحاً[2] ويقول « ومنذ الحروب الصليبية، ونحن نرى إما اغفالا متعمداً لذكر الاسلام، واما تحريفا مقصودا، وتشويها لحقائقه[3] ».

والكلام يطول إذا حاولنا رسم كافة الأبعاد لهذا العلم الذي برهن انه أنجح وسيلة لتنصير سوريا ولبنان فلنقتصر هنا على ما تصوره لنا الدكتورة لوريا فيشيا فاغليري Laura Veccia Vaglieri استاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الاسلامية في جامعة نابولي بإيطاليا!.

« لقد راح اولئك الناس يشيعون ان جوهر الاسلام كان العدوان العنيف، لقد زعموا انه كان دينا فرض بالسيف، ولقد اتهموه باللاتسامح، بل لقد اتهموا محمداً نفسه بالكذبْ وبالقسوة... لقد حاولوا ان يحطموا عمله الرائع في الاصلاح الإجتماعي والديني، وحاولوا اظهار اخلاص صحابته وتابعيه وتفانيهم بمظهر المصلحة الشخصية، وصوّروهم وكأنهم أناس لا تعمر نفوسهم غير الرغبة في الثروة والنجاح الدنيوي... لقد كان اولئك إما عمياً، واما غير راغبين في أن يروا[4] »...

---

(١) الله او الدمار لدولة سعد جمعه - ص١٠٧ نقلا عن كتاب « الاسلام والارساليات ».
(٢) و(٣) لماذا اسلمنا صفحة ١٢٦.
(٤) أنظر كتابها « دفاع عن الاسلام »، ترجمة منير البعلبكي صفحة ٢٨ و٢٩ (دار العلم للملايين).

بل ما من حسنة جاء بها الاسلام الا وسلبوها منه، وعَزوْها إلى أوربا، فالثورة الفرنسية قررت حقوق الانسان لا الاسلام، وان كان تقريره لهذه الحقوق، كان متكاملا وفي أوسع دائرة!

والنخاسة (تجارة الرقيق) حرَّمها ابراهام لنكولن، أو بريطانيا العظمى، لا الاسلام الذي جفف منابع الرق، وعالج المشكلة اكمل علاج وانجعه وانفعه!

والمرأة مهضومة الحقوق في الاسلام مع انها - بشهادة اعداء الاسلام المتحررين - نالت منها ما لم تصل اليه أرقى أمم اوربا في القرن العشرين!

حتى عقيدة التوحيد فضلوا عقيدة التثليث عليها، يقول جولدزيهر الألماني «التوحيد مذهب ينطوي على النقائض العسيرة الفهم اما التثليث فمذهب واضح في فهم الالوهية[1]».

إلى آخر هذا «العلم» الحاقد! الكريه!.

بل وما من مثلبة تصوّروها - أو وجدوها في مسيحيتهم المشوهة، الا ورموا بها الاسلام، وبغير حق!

فكما ان اوربا لم تتقدم الا بعد ان فصلت الدين عن الدولة، كذلك على المسلمين - إذا ارادوا التقدم - ان يفصلوا الدولة عن الدين! مع أنّ المسلمين ما تأخروا الا بعد ان فصلوا الدولة عن الدين!.

وكما أن الفيلسوف «كانط» انقذ الدين من العقل، وكما ان مسيحيتهم هذه لا تحتمل نور العقل، فلا بد لنا - نحن المسلمين - من كانط آخر يفصل العقل عن الدين، لأن الدين مجاله الوجدان والعقل لا يعمل الا في ميدان العلوم.

---

(١) نقلا عن كتاب التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ص١٩٢ - وانظر قول المستشرقين المنصفين عن عقيدة التوحيد في الاسلام ص١٧٤ من هذا الكتاب.

مع أن الاسلام لم يشهر سلاحاً أمضى من سلاح العقل، ولم يتّخذ أساساً يقوم عليه امتن من أساس العلم!

وهكذا... وهكذا... إلى آخر هذه القائمة التي ليس لها آخر!

وبطبيعة الحال تعاون الاستعمار مع الصليبية من أول يوم لنسج هذه الخيالات، وبث هذه السموم، ولم يكتفيا بأن يقوما بالتضليل وحدهما، بل رأيا وسائل اخرى منها خلق «اذناب لهما من المسلمين، – وهكذا – كما يقول المفكر الافريقي الشهير» الدكتور فرانسي فانون» «يعمد المستعمر الى تكوين طبقة من المفكرين تنشر مبادئه، وتثني على سلوكه الخلقي، لا على ابداعه المادي، وتكوين طبقة من القادة العملاء الذين يمتصون دم الشعب، وينفِّذون مخططات التجهيل والتضليل[1] ». وربما ومن قبيل هذا أن «سئل رئيس مدرسة تبشيرية في فلسطين كم نصرت من أبناء المسلمين. فأجاب «لا تسألوني كم مسلماً نصرته ولكن كم معولا صنعته من هؤلاء الأبناء لهدم الاسلام نفسه[2] ». وربما لم يكن من مجرد المصادفة ان ينصَّب الدكتور طه حسين عميداً لكلية الآداب، ثم يعين مستشاراً فنياً، فوزيراً للمعارف، عقب الضجة العارمة التي أثارها كتابه المضلل «الأدب الجاهلي» الذي ما هو الا رجع الصدى لاحقاد المبشرين وربما لم يكن من قبيل الاتفاق ان يعين علي عبد الرازق وزيراً للأوقاف بعد ان نشر للناس اباطيل المبشرين، ونسبها إلى نفسه في كتابه «الاسلام وأصول الحكم».

هذا على سبيل التمثيل لا الحصر.

وبذلك عملت ابواق المستشرقين، واذناب المستعمرين، من المسلمين، عملوا مع الصليبية على تشويه صورة الاسلام، وعزله عن الحياة.

فخلا الجو للالحاد – أو كاد!

---

(١) الله او الدمار – تأليف دولة سعد جمعة صفحة ١٨٦ (دار الكاتب العربي).

(٢) نقلا عن كتاب التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام للشيخ محمد الغزالي صفحة ١٦٧.

وهذه يد أخرى، تضمها الصليبية الى أياديها الأخرى التي طوقت بها عنق الالحاد - عدوها اللدود - وما أكثر ما قدمت المسيحية أو الصليبية من أياد للالحاد وما أجل أياديها التي قدمتها للالحاد حين أخذت على عاتقها تشويه صورة الاسلام، وسلب جميع محاسنه ومزاياه منه، وتلويث تاريخه الناصع الطاهر الفريد، مستعينة في كل ذلك لا بالاستعمار وحده، بل باعدائها الحقيقيين، قتلة السيد المسيح، فيما يزعمون!

ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور...

ترى ماذا فَعَلَ الاسلام للمسيحية، أو ماذا فعل المسلمون حتى يصل الجزاء الى هذا الحد، أو يكون من مثل هذا النوع؟.

لنستمع الى بعض المنصفين منهم وهم يجيبون على هذا السؤال:

كتب البطريرك ((عيشويابه)) يقول « إنّ العرب الذين مكّنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، إنهم ليسوا باعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا، ويوقرون قديسينا وقسيسينا، ويمدون يد العون الى كنائسنا وأديرتنا[1].

ويقول الكونت « هنري ديكاستري » إن مبالغة المسلمين في الإحسان إلى خصومهم هي التي مهدت للثورة عليهم، إذ أتاحت للمتعصبين أن يجمعوا أمرهم على العصيان وان يستغلوا الفرصة للقضاء على الدولة التي منحتهم حق الحياة... وحرمة التدين. ولو أن المسلمين عاملوا الاسبان مثل ما عامل المسيحيون الأمم الساكسونية (أي من التنكيل والابادة) لأخلدوا إلى الاسلام واستقروا عليه[2].

ويقول « ان مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا السبب في سقوط دولتهم[3] ».

---

(١) نقلا عن كتاب « التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام للاستاذ محمد الغزالي ص٣٨.
(٢) و(٣) المصدر السابق ص١٥٨.

وقال الحبر (ميشو) في تاريخ الحروب الصليبية «لما استولى عمر بن الخطاب على بيت المقدس لم يلحق بالنصارى ضرراً ما[1]، فلما استعادهُ النصارى قتلوا المسلمين قتلاً وأحرقوا اليهود حرقا .

وشهد شاهد من أهلها!

إذا علمت هذا، سهل عليك فهم القيامة التي اقامها الملاحدة إثْرَ المحاولات التي قام بها بعض المتحمسين للدين في أمريكا لربط المواد التي تدرس في المدارس بفكرة الإيمان بالله، وتضييق دائرة الفصل بين الدولة والكنيسة على أساس أن الكنيسة لن ترحم احداً إذا قامت لها قائمة، وان الصبغة الكنسية لو بدأت تعود للظهور على مسرح السياسة، فالويل والثبور وعظائم الأمور لحرية الفكر، وسترجع عقارب الساعة إلى الوراء ويعيد التاريخ نفسه»[2].

فانظر أي يد قدمتها المسيحية (أو الجزء الأكبر) المضاف اليها للالحاد والملحدين؛ ولو عاملت الاسلام ببعض ما عاملها به لتغيَّر الوضع الآن، وكان غير ما كان. والتاريخ خير شاهد على صحة ما أقول. وسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. ومن أوفى بعهده من الله؟

نعم. قوم يجاهدون في سبيل الله؟ وحماية الأديان المقدسة من جهادهم، واحترامها من واجباتهم ونشر العدالة بين الناس - على اختلاف مللهم ونحلهم وألوانهم - من خير ما يتقربون به الى الله. شأنهم في ذلك شأن سلفهم الصالح الذين كانوا خير أمة اخرجت للناس وان جوزوا جزاء سنمار.

اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون.

---

(١) المصدر السابق ص١٥٨.

(٢) أنظر كتاب Why Iam not a Christian لبيرتراند رسل مقدمة الناشر (المستر بول ادوارد).

تذييل

ولا بد من كلمة خاطفة عن التوراة المتداولة اليوم فهي الأخرى ليست أسعد حظاً من الانجيل ان لم تكن أسوأ... ولا شك انها نثرت الورود في طريق الالحاد ولَمَ لا؟

إنها نفسها تقول إنها محرفة ومغيرة ومبدلة،

جاء في المزامير الاصحاح ٥٦ «ماذا يصنعه بي البشر اليوم كله يحرفون كلامي».

وجاء فيها قول الرب مخاطباً لأرمياء «بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي. لم ارسلهم ولا امرتهم ولا كلمتهم بالرؤى الكاذبة. ومكر القلب يتنبئون (ارميا ١٤).

وفي (ارميا ٢٣) «حرفتم كلام الاله الحي رب الجنود الهنا»

أليس الالحاد أفضل من اتباع كتاب،اللهُ نفسه يقول فيه أنه محرف وبشهادة الكتاب ذاته؟

وما تضمنته من تناقضات، وأحكام، ايضا بدوره يدل على أنها ليست من عند الله، ففي نسخة نجد أن آدم عاش مع نوح ٢٢٣ سنة، وفي نسخة أنه مات قبل نوح بـ١٢٦ سنة، في حين تذكر نسخة ثالثة انه مات قبل ان يولد نوح بـ٧٣٢ سنة. هذا مثال واحد نكتفي به.اي شيء ادعى إلى الالحاد من هذا التناقض العجيب؟

وأوصافها لله تعالى اعجب فهو رب يتعب بعد خلق الكون، ويحتاج إلى راحة في اليوم السابع. كيف يتعب الرب وما الفرق بينه وبين المربوب؟ وإذا كان يتعب فلماذا هذه العجلة، وما المانع ان يخلقه في مدة لا ترهق قواه. تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً؟

وهو يندم على الشر، ويندم على أنه جعل شاول ملكاً، كيف يؤمن المرء باله لا يدري عاقبة ما يقدم عليه من عمل، شأنه في ذلك شأن

الأطفال وضعاف العقول او النفوس. تعالت ذاته. وتقدست اسماؤه وصفاته.

وهو اله عنصري متطرف في عنصريته يتحيز لبني اسرائيل حتى في الظلم الى غير ذلك مما تعالى الله عنه علوا كبيراً - أي يد يمكن ان يقدمها ابليس نفسه للالحاد أعظم من هذه اليد التي تقدمها هذه التوراة المفتراة؟

وإذا كان هذا موقف التوراة من الله فلا عجب إذن أن تقول في الأنبياء أبشع وأفظع مما قال مالك في الخمر فنوح يعاقر الخمر حتى يذهب عقله؟ ولوط يضاجع بناته وهو سكران ثمل، ويعقوب لص يسرق البركة، ويسطو على النبوة والأغنام والمواشي، ويهوذا لا يستحي أن يزني بزوجة ولده. و....و.... الى آخر ما تقشعر منه الأبدان وتصطك منه الأسنان، ويندى - حياء - له الجبين. كبرت كلمات يدسونها في توراتهم ان يقولون الا كذبا، فكيف يقتدي عاقل بأشخاص غرقوا في الرذيلة إلى الآذان؟ وكيف يعقل ان يكون مثل هذا السخف منزلا من عند الله؟ وما هو الغرض الذي يستفاد من نشر هذه الفضائح في كتاب المفروض ان يكون «مقدساً»

ولم تسلم الملائكة بطبيعة الحال من هذا الرجس والإفك والبهتان.

ما أصدق ما قال جان ملز «اتفق أهل العلم على ان نسخ التوراة الأصلية وكذا نسخ العهد القديم ضاعت من أيدي عسكر بختنصر، ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة عزرا ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة انتيبوكس».

وبذلك تكون الصلة قد انقطعت بين اليهود وبين موسى، وبالتالي بين اليهود وبين الله عز وجل، كما انقطعت بعدهم بين النصارى والمسيح ابن مريم.

فكيف يؤمن عاقل باله لا تربطه به الصلة التي لا يعقل ان يقوم دين الا عليها، والا كان دينا مكذوباً مفتري لا يقود الا الى الضلال الذي يغذي الالحاد ويتسبب فيه ويمهد له الطريق.

أما آن لهؤلاء القوم ان يرجعوا الى العقل اولا قبل ان يرجعوا الى الدين.

العوامل التي ساعدت على التفسير المادي للنظرية

الفيلسوف البريطاني جود[1]

يتجنى على السيد المسيح عليه السلام

يقول الفيلسوف البريطاني الشهير سي . ام . جود : C.E.M Joad « اذا نظرنا الى السيد المسيح كاستاذ اخلاق وسلوك ، نجده شخصاً ليس له كبير تأثير ، فان كثيراً من تعاليمه جاءت في تعاليم الديانات الكبرى السابقة له . وما بقي من تعاليمه فانما هو حصيلة الفلسفات الاغريقية . فضلاً عن أن تعاليمه كما وصلت الينا تبدو غير متماسكة ، ولا منسقة . على أن هناك كثيراً من أمور السلوك لم يقل فيها إلاّ القليل ، ان لم يكن قد قال اي شيء . ثم ان ما جاء عنه مما يرتبط بدور الانسان في الحياة ، ودور المواطن في المجتمع وصلته بالدولة كلها مشوشة غير ملائمة . ولم يكن للعقل عنده كبير أهمية[2] .

ثم يمضي الى القول بأن « اكثر كلامه غامض ومبهم لدرجة تثير السخط ، ومع ذلك فهو يوبخ ويؤنب السامعين على أنهم لا يفهمون حديثه . وغالباً ما يستشيط غضباً ، من أجل ذلك ، حتى ان المرء ليخرج بانطباع مؤداه ان السيد المسيح لا يتصف في بعض الأحيان « بالمعقولية » . على سبيل المثال هل هناك شيء أكثر معقولية من أن يتوجه أتباعه أو الفريسيون «Pharisee» بسؤال عن البرهان على أنه من عنصر غير بشري Supernatural . كما يَدَّعي ؟ ومع ذلك فما أكثر ما كان

(١) راجع السؤال الرابع من الاسئلة السابقة . ص ١٤٥ من هذا الكتاب .

(٢) راجع كتابه Recovery Of Belief صفحة ١٦٤ و ١٦٥ .

يثور ويهتاج وبصورة مريرة حينما يُتَقَدَّمُ اليه بمثل هذا السؤال[١] (المعقول) ».

ثم لا يكتفي « جود » بكل هذا، بل يصرح بأن سيدنا عيسى عليه السلام ((اذا آعتبر كمجرد مبشر اخلاقي، فانه سيكون في المرتبة دون بوذا وسقراط))، واليك عبارته:

Considered merely as an ethical teacher Christ is junior both to Budha and to Sacrates.

على أن مما تجدر الإشارة اليه اننا - معشر المسلمين - لا نؤمن بهذا الهراء الذي يهذي به « جود »، وان كان - بحق - من اساطين الفكر والمعرفة في القرن العشرين...

وانما نجترىء على تسمية مثل هذا الكلام هراء وهذيانا لأسباب:

أولاً: يعتبر « جود » - فيما يبدو من كلامه - ان بنوة المسيح لله - تعالى - أمر واقع لا ينفع فيه الجدل، ولا يجدي فيه النقاش! مع انه امر مرفوض من جهات الذروة في البحث، والتقصي للأمور! تقول دائرة المعارف البريطانية ان سيدنا عيسى عليه السلام ((لم تصدر عنه أي دعوى تفيد انه من عنصر الهي)) أو من عنصر اعلى من العنصر الانساني المشترك[٢])) - واذا تركنا دائرة المعارف نجد هنالك من المفكرين - مثل - رينان - من تقصى موضوع هذه الدعوى، وأثبت بطلانها بأقوى الأدلة، وأنصع البراهين! ومثل هـ.ج.ويلز. وغير هؤلاء كثير.

ثانياً: يتكلم السيد « جود » عن آراء السيد المسيح - عليه السلام -

(١) المصدر السابق صفحة ١٦٥.

(٢) أنظر المجلد الخامس صفحة ٦٣٢ طبعه ١٩٥٣م.

ويصفها بالتفكك، والضعف؛ وعدم الشمول، فضلا عن انه لم يأت فيها بجديد وإنما يسبقه اليها فلاسفة الاغريق القدماء! ولا أدري اين وجد السيد «جود» هذه الآراء، وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية انه لم يبق من آرائه، ولو كلمة واحدة مكتوبة[1]! لعله استند في ذلك على ما في الأناجيل،وكلام كبار المفكرين المسيحيين في الأناجيل معروف لا داعي لسرده هنا منعاً للحساسيات وعلى كل حال لك ان ترجع الى اجابة الأسئلة التي تقدمنا بها في صدر هذا الباب، نجد بعض المراجع المطلوبة هناك. وكلها مصادر غير اسلامية. بمعنى انها لا تتهم بالتحيز.

ثالثاً: يرمي «جود» السيد المسيح - عليه السلام - بالتهور - وشدة الانفعال وكثرة الغضب، وعدم المعقولية، حتى لكأن «جود» لديه من المصادر والوقائع الثابتة، ما يسمح بصدور هذه الأحكام. ذلك اننا لا نستطيع ان نحكم على الغضب مثلاً بأنه رذيلة الا من المناسبات والوقائع، فقد يكون الغضب محموداً؛ وقد يكون الانفعال أمراً طبيعياً، وأبعد ما يكون عن الذم، كما لو أن السيد المسيح سئل ان يبرهن على أنه من عنصر أعلى من العنصر الانساني، أو أنه ابن الله مثلا، وهو لم يدَّع ذلك، كما تقول المصادر المعتمدة المسيحية مثل دائرة المعارف البريطانية وغيرها، فيما مر بك قبل هنيهة! وأي شيء ادعى الى الانفعال من أن تعتقد في شخص يأكل الطعام، وأمه امرأة، انه ابن الله! وهو لم يجيء الا لمحاربة هذه الترهات وهذه الأباطيل... ان الصفات - حتى التي تعتبر حسنة - كالحلم، والصفح، مثلا فضلاً عن الصفات الأخرى التي كالغضب وما

---

(١) المصدر السابق صفحة ٦٣٦.

إليه، لا يمكن أن تُقوَّم إلا في حدود وقائع معينة، ومستفيضة، وثابتة!.فأين وجد «جود» هذه الوقائع الثابتة التي على ضوئها أصدر مثل هذه الأحكام، مع ان حياة السيد المسيح - عليه السلام - غامضة، ولا تسعف المؤرخ بالاجتراء على اصدار مثل هذه الأحكام. يقول ((ريوند باسورت سمث عضو كلية التثليث« اننا نجهل الكثير عن ديانات بوذا، وكونفوشيوس وزرادشت، ويشتمـل الغموض حيـاة المسيـح، وأصحـابـه وحوارييه[1])) بل أن الغموض الذي يكتنف حياة السيد المسيح خول لبعض المفكرين القول بأن السيد المسيح ليس الا اسطورة من نسج الخيال! ومن هؤلاء استاذ علم الاجتماع بجامعة السوربون، الاستاذ «بابيه» وغيره كثيرون[2].

فعلى أي أساس أصدر العلامة «جود» مثل هذه الأحكام! أمن المصادر اليهودية، وموقفها من السيد المسيح معروف! ام من الانجيل وقد مر بك الكلام على الأناجيل، وشهد شاهد من أهلها، كما سبقت الإشارة اليه!

رابعاً: رغم أن «جود» يؤمن حسب الظاهر من كلامه، بأن المسيح ابن الله فانه يؤمن بدرجة أشد وأقوى بأن السيد المسيح دون بوذا وسقراط! دونها في الفكر، والأصالة والشمول، كما هو واضح من النص الذي نقلناه، برمته... وقد كنا نعذره في مثل هذا الكلام لو أنه غير مسيحي - أما انه مسيحي، ونصب نفسه للدفاع عن المسيحية، فان صدور مثل هذا الكلام منه يعتبر غاية في الغرابة، بل وفي الاستهتار بالعقول ان عظمة (بوذا) انما تستمد من ديانته فاذا كان هو أعظم من السيد

---

(١) أنظر كتاب «الله أو الدمار» لدولة سعد جمعه صفحة ٢٥٦ (دار الكاتب العربي).
(٢) على سبيل المثال هـ.ج. ولز. في كتابه مختصر تاريخ العالم.

المسيح فان ديانته في هذه الحالة ستكون أفضل من المسيحية فعلى أي أساس آمن جود بالمسيح، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير[١]؟ بل على أي أساس نصب نفسه حامياً لحمى المسيحية، وبذل في الدفاع عنها ما بذل؟

خامساً: من أين ألمّ بتاريخ «بوذا» هذا الالمام الذي يخول له صدور مثل هذا الحكم، لا لأن تاريخ «بوذا» غامض كل الغموض كما مر بك من قول باسورت سمث، لكن لأن الأستاذ «جود» يعترف في نفس الكتاب الذي يفضل فيه «بوذا» على المسيح، بأنه لا يعرف من الديانات الا المسيحية وديانة قدماء الاغريق[٢] أم أنه درس تاريخ بوذا مجرداً عن ديانته التي هي سر عظمته، ومصدرها الأول والأخير!.

لكن هذه الاحكام التي صدرت عن العلامة «جود» رغم تفاهتها، بالغة الأهمية كبيرة الوزن، لا لأنها صدرت من رجل في مكانة «جود» وشهرته لكن لأنها تصور - أحسن تصوير - الأساس الذي يقوم عليه الايمان بالمسيح وهو أساس لا يتصور أنْ يقوم عليه شيء غير التنكُّر للمسيح والمسيحية، لو سارت الأمور مع المنطق، وارتبطت النتائج بالمقدمات؛ والا فماذا كان يُنتظر من «جود» أن يقول، لو لم يرجع الى المسيحية بعد أنْ كان قد ارتدّ عنها، بل ماذا كان ينتظر ان يقوله أعدى أعداء السيد المسيح، وأعتى خصوم المسيحية أَفكانوا يقولون أسوأ مما قاله «جود» هذا المؤمن بالمسيحية، والذائد عن عرينها[٣]؟ لو

(١) صحيح أن جود يرى أن عظمة السيد المسيح تستمد من بُنوّته لله تعالى، وقد علمت مما أشرنا اليه من المصادر المسيحية المعتمدة أن هذا افتراء على الله! وعلى السيد المسيح نفسه.

(٢) أنظر كتابه Recovery Of Belief ص٧٩.

(٣) الواقع أن بيرتراند رسل إمام ائمة الالحاد في القرن العشرين على الاقل يشارك جود هذا في أكثر آرائه هذه - ولكنه لم يصل الحد الذي وصل اليه «جود» المؤمن بالمسيح المدافع عن المسيحيين - انظر ما قاله بيرتراندرسل في كتابه لماذا لم اعتنق المسيحية (باللغة الانجليزية) ص٢٢ - صحيح أنه أشار الى أن السيد المسيح شخصية اسطورية شأنه في ذلك شأن كثير من المفكرين «المتشككين» ولكن اذا عذرنا بيرتراندرسل لأنه ملحد، فما هو عذر «جود» المؤمن المستميت؟»

رجع الزمان القهقرى او لو بعث اليوم، المتهمون بصلب السيد المسيح وقتله، وانعقدت محكمة من المسيحيين أنفسهم لمحاكمتهم لكان العلامة « جود » بأحكامه هذه أقوى محام للدفاع عن هؤلاء المتهمين ولوجدت المحكمة من أقوال « جود » هذه أعظم سند لتبرئة المتهمين من ((الاجرام)) وقلّدتْهم وسام البطولة والشرف من أجل هذه الفعلة التي قاموا بها لينقذوا الانسانية من شر لا قبل لها به! والا:

فمن الذي ينكر أن يقتل رجل يدعى أنه ابن الله؟ وليست هناك علامة واحدة يستطيع ان يذكرها لتأييد هذه الدعوى التي تؤيد بطلانها الف علامة وعلامة! واذا سأله حوارييوه وأَتْباعه المقربون، أن يؤيد لهم هذه الدعوى لتطمئن قلوبهم، انفجر فيهم في حنق وغيظ، وهياج، وانفعال! فكأَن أَتْباعه أكثر « معقولية » منه بكثير حسب نص العلامة الكبير!

من الذي ينكر أن يقتل رجل لفّقَ آراء أخذها - أو قُلْ سرقها - من فلاسفة الاغريق القدماء، ثم لم يحكم ((الطبخة)) فجاءت آراؤه، واضحة التهافت بينة القصور قليلة الجدوى، غير متماسكة، ولا شاملة! ثم لم يلبث ان نسبها الى الله، باعتباره مرسلاً من عنده! كما استأثر، بحكم دعواه العريضة، بمكانة ابن الله - البكر!.

من ينكر أن يقتل رجل أهم ما جاء به هو أن يكون قدوة حسنة لأتباعه في الأخلاق، وحسن المعاملة، في حين انه في خويصة نفسه، كثير الغضب شديد الهياج غليظه، فظ، كأغلظ ما يكون عُتل في التاريخ! - أتأمرون الناس بالبِرِّ وَتنْسَوْنَ انفسكم؟!.

من الذي ينكر أنْ يُقتل رجل يدَّعي أنه ابن الله - الاوحد! - ومع ذلك تُخطِئُهُ جميع قوانين الوراثة، فيكون هو « النسل » الوحيد الذي لا يرث من ((والده)) ولو ذرة، كان من شأنها ان تجعله فوق سقراط وبوذا بمراحل كما تجعله - بحكم بُنُوَّته لله.. تعالى! - فوق جميع

المفكرين والعباقرة، والناس أجمعين، وان كانت جميع الأدلة، بما فيها وثيقة « جود » هذه تكذب الدعوى، من جميع الوجوه! - ما أعجب ما فعله هذا الوالد العجيب! يخطىء واحد من البشر خطيئة واحدة، فيسري مفعولها - بحكم الارث - في جميع أبناء هذا المخطىء، ولكنه حين ينجب - وفي آخر الزمان - ولدا يكون نصيبه الحرمان مما تورثه دماء كافة الآباء للأبناء! ولا يكتفي هذا ((الوالد)) القادر على كل شيء بان يجعل ابنه - الفريد - دون سقراط، ودون بوذا - وبطبيعة الحال دون كثيرين! بل يزيد - إمعاناً في التنكيل بابنه ((الحبيب)) - يزيد على ذلك أن يترك جميع السبل التي تكفل تكفير هذه الخطيئة، مهما عظمت، الا سبيلاً واحداً هو إراقة دم ابنه الزكي البريء قرباناً فذاً في معبد « الخطيئة » دون أدنى شفقة، وأي حنان! احشفا وسوء كيلة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً!.

حقا أنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

الباب الخامس

استطراد لا بد منه

قد يقول قائل، وهل سلم الاسلام من هذه المآخذ التي ذكرتموها عن المسيحية؟ هل القرآن الذي نتلوه اليوم هو نفس القرآن الذي أُنزل على سيدنا محمدﷺ، هل العبادات هي نفس العبادات التي أمر الله بها نبيه محمداًﷺ أن يبلغها للناس؟ هل موقف الاسلام من العقل والعلم أحسن حالاً من موقف المسيحية؟ هل... هل... إلى آخر ما ذكرتموه من التساؤلات...؟

كل هذه اسئلة وجيهة، ولا بد من الوقوف عندها، حتى ولو كان في ذلك خروج عن الموضوع الرئيسي، كيلا نُتهم بأننا نرمي الناس بالحجارة حين ان بيوتنا من الزجاج!

وكما لم نستشهد في كلامنا عن المسيحية إلاّ بأقوال غير المسلمين، او بأقوال مسلمين كانوا مسيحيين، ثم اعتنقوا الاسلام، كذلك لن نستشهد هنا عن الاسلام إلاّ بأقوال امثال هؤلاء حتى لا نتهم بالتحيز.

١ - القرآن الذي نتلوه اليوم:

يقول السير وليم موير وهو من ألَدِّ أعداء الاسلام: «ومع ما أدى اليه مقتل عثمان نفسه من قيام شيع متعصبة ثائرة زعزعت ولا تزال وحدة العالم الاسلامي فان قرآنا واحداً قد ظل دائما قرآنها جميعاً، وهذا الاسلام منها جميعا الى كتاب واحد على اختلاف العصور حجة قاطعة على ان ما أمامنا اليوم انما هو النص الذي جمع بأمر الخليفة السيء الحظ، والأرجح ان العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل

اثني عشر قرناً كاملاً بنص هذا مبلغ صفاته ودقته[١] » ويقول: « والنتيجة التي نستطيع الاطمئنان الى ذكرها هي ان مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقا فحسب. بل كان كما تدل عليه الوقائع كاملاً، وأن جامعيه لم يتعمدوا اغفال أي شيء من الوحي، ونستطيع كذلك ان نؤيد - استنادا على أقوى الأدلة أن كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد[٢] » ويقول الدكتور هيكل الذي نقلنا منه هذه العبارات التي رواها عن السير وليم موير ما نصه « اطلنا في اقتطاف عبارات سير وليم موير على ما وردت في كتابه حياة محمد، على أنّ ما اقتطفناه يغنينا عن ذكر ما كتبه الأب لامنس وفون هامر ومن يرون هذا الرأي من المستشرقين، هؤلاء جميعا يقطعون بدقة القرآن الذي نتلوه اليوم، وبأنه يحتوي كل ما تلاه محمد على انه الوحي الذي تلقاه من ربه صادقاً كاملاً، فاذا ذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين غير مذهبهم، غير آبهين بالأدلة العلمية التي ساقها « موير » وكثرة المستشرقين كان ذلك تجنّياً على الاسلام لم يمله غير الحقد على الاسلام، وعلى صاحب الرسالة الاسلامية »[٣] - وفي هذه القلة الحاقدة من المستشرقين يقول الكونت هنري دي كاستري: « اولئك كتاب ما قصدوا التاريخ، ولكنهم ارادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم كما يقولون، وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصومهم سباً وشتماً وأن يحرفوا في النقل مهما استطاعوا»[٤].

ومن يشارك السير وليم موير رأيه المنصف في القرآن الكريم: اربثنت F.F. Arbuthnot حيث يقول: « ولقد ظل القرآن حتى اليوم بدون أي تحريف، أو تبديل، لا من المتحمسين له ولا من ناقليه الى

(١) و(٢) أنظر كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل الطبعة الثالثة الصفحات ٣٤ الى ٣٨.
(٣) أنظر « حياة محمد » للدكتور هيكل صفحة ٣٨.
(٤) أوروبا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمود صفحة ٤٤.

لغات اخرى، ولا ممن يتربصون به الدوائر، وهو موقف لم يقفه - مع الأسف - اي كتاب من كتب العهدين القديم والحديث معاً»[1].

ويضرب على هذا الوتر Basanta C. Bose فيقول: «لذلك فلم تكن هناك أية فرصة لتبديل اي جزء من القرآن أو تحويره، ولو بوازع الحماس له، وهو الكتاب الوحيد الذي ينفرد بهذه الميزة، بين سائر الكتب التي جاءت بها الديانات القديمة العظمى»[2].

٢ - العبادات في الاسلام:

وما يقال عن القرآن الكريم، يقال عن العبادات والشعائر والمراسيم الدينية التي جاء بها الاسلام، فهي هي التي كان يؤديها سيدنا محمد ﷺ نفسه، وهي هي التي وردت اصولها في الكتاب الكريم، وتولت السنّة المطهرة تبيانها وشرح كيفياتها، وسائر ما يتعلق بها، مما ظل يتناقله المسلمون جيلاً عن جيل الى يومنا هذا، والى ان تتبدل الأرض غير الأرض والسموات. يقول «بودلى المستشرق الامريكي الكبير» ... اذا عاد محمد الى اي مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنزبار، فانه سيجد نفس الشعائر البسيطة التي كانت تقام في مسجده في المدينة الذي كان من الأجر وجذوع الشجر[3] ».

٣ - القرآن والكشوف العلمية:

أما صمود القرآن الكريم امام الكشوفات العلمية فيكفي في الدلالة عليه شهادة الفيلسوف الفرنسي الكسي لوازون حيث يقول «خلّف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة، وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً، او المكتشفات الحديثة مسألة

(١) أنظر The Construction Of The Bible And The Coran صفحة ٥٥.
(٢) أنظر كتاب Mohamedanism صفحة ٤.
(٣) أنظر الاسلام بين الانصاف والجحود تأليف محمد عبد الغني حسن صفحة ٣٢ (سلسلة مع الاسلام).

تتعارض مع الأسس الاسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن، والقوانين الطبيعية...[1] ».

ومن الحقائق التي لا تقبل الجدل ان في القرآن ما يزيد على تسعمائة آية تدخل جميعها تحت نطاق العلوم[2] يقول الدكتور « جرينييه » المسلم الفرنساوي الشهير:

« إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتي درستها من صغري وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة فأسلمت لأني تيقنت ان محمدﷺ اتى بالحق الصراح من قبل الف سنة، دون ان يكون له معلم او مدرس من البشر، ولو ان كل صاحب فن من الفنون، او علم من العلوم قارن كل الآيات المرتبطة بما تعلم جيداً، كما قارنت انا لأسلم بلا شك إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض[3] ».

بل يمضي الدكتور Benoist - وهو فرنسي من عائلة كاثوليكية. اعتنق الاسلام وتسمى « علي سلمان بنوا » - نعم يمضي هذا الدكتور الفرنسي الى ابعد من ذلك، فيقول:

« إن من بين آيات هذا القرآن الذي أوحى به منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ما يحمل نفس النظريات التي كشفت عنها أحدث الأبحاث العلمية[4] ».

ولا غرو في ذلك ولا عجب، فان النهضة العلمية الحديثة مدينة

---

(١) « الدين والعلم » تأليف احمد عزت، ترجمة حمزة طاهر، مراجعة عبد الوهاب عزام (لجنة الترجمة والتأليف والنشر).

(٢) أنظر كتاب « القرآن والعلم » تأليف الدكتور محمد جمال الدين الفندي صفحة ٩ - الطبعة الاولى سنة ١٩٦٨ م.

(٣) أنظر كتاب اوروبا والاسلام » للدكتور عبد الحليم محمود صفحة ٨٣.

(٤) أنظر كتاب « لماذا أسلمنا » صفحة ٧١.

للحضارة الاسلامية في كل شيء، مدينة لها في وجودها، مدينة لها في أُصولها ومقوماتها، مدينة لها حتى في وَسائل البحث العلمي وطرائقه وأساليبه... يقول الاستاذ «بريفولت» في كتابه المسمى «بناء الانسانية» «Making of Humanity»: -

«لقد كان العلم أَهم ما جاءت به الحضارة الاسلامية وليس ثمّة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوربي إلا ويمكن إرجاع أَصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة، وكانت أَظهر ما تكون في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي[١]».

ويقول «العالم الفيلسوف الحكيم الصوفي» رينيه جينو الذي يدوي اسمه في اوربا قاطبة، وفي امريكا، والذي يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون بالدراسات الفلسفية والدينية والذي كان اسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة فاقتدوا به، واعتنقوا الاسلام، وكونوا جماعات مخلصة تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في الغرب...[٢]» - يقول «ان كثيرا من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الاسلامية او يفقهوا حقيقة ما اخذوه عن الحضارة العربية في القرون الماضية، بل ربما لم يدركوا منها شيئاً مطلقاً، ذلك لأن الحقائق التي تلقى اليهم حقائق مشوهة، حظها من الصحة قليل، فانها تبالغ كل المبالغة في الحط من شأن الثقافة الاسلامية والتقليل من قدر المدنية العربية كلما اتاحت الظروف ذلك لأصحابها...[٣]» ثم يفصّل ذلك موضحاً أثر الثقافة الاسلامية في الحضارة الحديثة، وعلى سبيل المثال نذكر ما يقوله عن العلوم الطبيعية وكيف «أنا نعلم علم اليقين انها انتقلت بكلياتها وجزئياتها الى اوربا عن طريق الحضارة الاسلامية مصبوغة بالصبغة الاسلامية تماماً[٤]».

(١) أنظر الله أو الدمار تأليف دولة سعد جمعة صفحة ٦٦ (دار الكاتب العربي).
(٢)، (٣) أوروبا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمود صفحة ٦٨.
(٤) المصدر السابق صفحة ٧٢.

٤ - العقيدة الاسلامية:

لقد اعترف القس - الأسقف - «لفردي» في كتابه «الكنيسة والعالم» بأن «العقيدة الاسلامية» خالية من التعقيدات والتجريدات، فهي من ثم في متناول ادراك الشخص العادي. انها تمتلك فعلا قوة عجيبة لاكتساب طريقها الى ضمائر الناس[١]» - اين هذا من قول ليكونت دينوي الذي سبقت الإشارة اليه، والذي يؤكد ان العقيدة المسيحية في صعوبتها وتعقيداتها اشبه بالنظرية النسبية!

ويقول أشهر المؤرخين المعاصرين «آرنولد توينبي» في موسوعته «دراسة التاريخ» وفي كتابه «مدخل تاريخي للدين» ان الاسلام إكثر العقائد الدينية اتفاقا مع المنطق وأشدها صرامة في الايمان بمبدأ الوحدانية الجليل، وأعظمها وضوحاً في ادراك الاستشراق الإلّهي[٢]».

ويقول Hobohm وهو، سياسي ومبشر وباحث اجتماعي الماني الجنس، اعتنق الاسلام «ان العقائد الأساسية في الاسلام كلها تتفق مع العقل وطبيعة البشر، ولها من الجلال والاغراء ما لا يملك معه الباحث الأمين عن الحقيقة الا ان يستجيب لها[٣]».

٥ - الاسلام والعقل:

يقول الدكتور ليون «Leon» العالم الانجليزي اللغوي والجيولوجي والمؤلف والذي حصل على درجات علمية كثيرة أهلته لأن يكون زميلاً وعضو شرف في كثير من الهيئات العلمية في اوربا وامريكا والذي اسلم وتسمى هرون مصطفى ليون، يقول: من مفاخر الاسلام انه مبني على العقل، ولا يطالب معتنقيه ابداً بتجميد طاقاتهم الفكرية. ويحض

---

(١) الله أوالدمار تأليف دولة سعد جمعة صفحة ١٠٧ (دار الكاتب العربي).

(٢) المصدر السابق صفحة ١١٥.

(٣) لماذا اسلمنا صفحة ٦٠.

على البحث، ويدعو الى النظر والتدبر قبل التصديق والايمان[١] ».

ويقول جونار اريكسون Gunnar Erikson وهو سويدي اعتنق الاسلام «ان ما اعجبني وما زال يعجبني في الاسلام هو اسلوبه المنطقي، فلا يطلب اليك الايمان بشيء قبل ان تدركه وتعرف اسبابه، والقرآن الكريم يعطينا من الأمثال على وجود الله ما لا يترك مزيداً لمستزيد[٢] ».

٦ - الاسلام والحياة:

يقول الباحث الاجتماعي البولندي «ويسلو زيجريستي Weislaw Zejiersti الذي اسلم وتسمى اسماعيل: «انني رجل متخصص في الدراسات النظرية لعلوم الحضارة والاجتماع وقد أدهشتني النظم الاجتماعية التي يقررها الاسلام... وقد وجدت في الاسلام التشريع الكامل الشامل لكل وجوه الحياة، التشريع القادر على قيادة الفرد والجماعة تجاه اقامة «المملكة الربانية» على الأرض التشريع الذي فيه من المرونة ما يجعله ملائماً لظروف العصر الحديث[٣] ».

ويقرر المجمع الدولي للقانون الذي ضم كبار رجال القانون في العالم سنة ١٩٥١ ان الشريعة الاسلامية تنطوي على ثروة هائلة من الأصول الفقهية تجعلها صالحة لكل مطالب الحياة الحديثة[٤].

ويقول المستشرق الفرنسي «جان برك» وهو من أكبر الفلاسفة المعاصرين «لا اجد تناقضا بين القيم الاسلامية والتكنولوجيا الحديثة[٥] ».

ويقول «الفونس اتيين دينيه» «لو كان الاسلام الحقيقي في اوربا لكان من المحتمل أن ينال - أكثر من أي دين آخر - من العطف

(١) المصدر السابق صفحة ٦٥.
(٢) المصدر السابق صفحة ١٩١.
(٣) لماذا اسلمنا صفحة ١٣٠و١٣١.
(٤) و(٥) الله او الدمار لدولة سعد جمعة صفحة ٣٢٣ (دار الكاتب العربي).

والتأييد من جراء روح التدين التي نجمت عن الحرب الكبرى، فانه والحق يقال - يلائم ميول جميع معتنقيه على اختلاف مشاربهم... فبينما تجد الاسلام يهيج من نفس الرجل العملي في أسواق لندن حيث مبدأ القوم «الوقت من الذهب» اذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروماني، وكما يتقبله - عن رضا - ذلك الشرقي ذو التأملات، ورب الخيال، اذ يهواه، ذلك الغربي الذي أفناه الفن، وتملكه الشعر[(١)].

ويقول هـ. ف. فيلوز H. F. Felloes:

«لقد بدأنا نقرأ في الصحف في الاونة الاخيرة اقوالاً لفلاسفة وكتاب مؤداها أن الاديان الحالية أصبحت عتيقة بالية، واعتقد أن هذه الاقوال تعكس على مرآتها مدى تشكك الغربيين وارتيابهم في المفاهيم المعقدة، والغامضة في الدين المسيحي، وهؤلاء الذين ينادون - في زعمهم - الى الاصلاح والتجديد، انما يقعون في نفس الخطأ الذي وقع فيه قبلهم مارتن لوثر، لأن الاسلام - وهو الدين الذي يحقق كل هذه الرغبات في الاصلاح - قائم فعلا بين أيدينا[(٢)]».

ويذهب المنصفون من المستشرقين الى أبعد من ذلك بكثير.

يقول عميد كلية الحقوق في جامعة ڤينا، الاستاذ «شيريل» أن البشرية تفخر بانتساب محمد اليها. ذلك الأمي الذي استطاع أن يأتي بشريعة سنكون نحن الأوروبيين اسعد ما نكون لو وصلنا الى قمتها بعد الفي عام[(٣)]».

وقريب من هذا قول المؤرخ الانجليزي ادوار كيون «أن موحدا ذا دماغ فلسفي لا يتردد لحظة في قبول وجهات نظر الاسلام. فالاسلام دين

---

(١) أوروبا والاسلام - للدكتور عبد الحليم محمود صفحة٨٥.

(٢) لماذا اسلمنا صفحة ١٦٤.

(٣) الله او الدمار لدولة سعد جمعة ٣٢٢ (دار الكاتب العربي).

اعلى من تطورنا الفكري اليوم[١] ».

ويقول الفيلسوف الالماني « جوته » أية شريعة في الدنيا لا تستطيع أن تعلو على شريعة محمد، وسوف لا يتقدم عليه احد. واذا كان هذا هو الاسلام فكلنا مسلمون[٢] ».

ويقول B. Davis (ب.دافيس) الانجليزي الذي اعتنق الاسلام «لقد وجدت الاسلام يشتمل على كل ما نتصوره من خير في المسيحية وفي الشيوعية وفي غيرهما من الاسماء بل ويتفوق عليها جميعا[٣].

وليس من السهل استقصاء ما قاله المنصفون من رجالات الفكر في الغرب عن شمول الشريعة الاسلامية، وتفوقها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان - فاذا وجد من الصليبيين من يقول بخلاف ذلك فانهم ضالون، حاقدون، اعماهم التعصب العنيد عن نور الحق - ويكفي في الرد عليهم قول اللورد هدلي «ليس في وسع الانسان في الحقيقة الا أن يعتقد أن مدبجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى ولا أول مبادىء دينهم، والا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع انحاء العالم تقارير معروفة لديهم أنها محض كذب واختلاق[٤] ».

٧ - سيدنا محمد ﷺ المثل الكامل:

اذا كان سيدنا عيسى عليه السلام في نظر الغربيين - كما مر - أُسطورة من نسج الخيال، أو على أحسن الفروض حقيقة واقعه إلا أن تاريخه يكتنفه الغموض، فعلى العكس من ذلك سيد الاولين والآخرين، سيدنا محمد ﷺ. يقول البرفسور رينولد.أ. نكلسون Prof. Reynold A. Nicholson في كتابه التاريخ الادبي للعرب ص١٤٣:

(١) الدين والعلم - تأليف أحمد عزت تحقيق عبد الوهاب عزام صفحة ١٢٥.
(٢) الله أو الدمار - تأليف دولة سعد جمعه صفحة ٣٢٢ و٣٢٣.
(٣) لماذا أسلمنا - صفحة ١٧٣.
(٤) اوروبا والاسلام - تأليف الدكتور عبد الحليم محمود صفحة ٥٦.

« القرآن وثيقة انسانية رائعة توضح بدقة سر تصرفات محمد في جميع احداث حياته، حتى أننا لنجد فيه مادة فريدة لا تقبل الشك او الجدل نستطيع من خلالها أن نتتبع سير الاسلام منذ نشأته وظهوره في تاريخه المبكر، وهذا ما لا تجد له مثيلا في البوذية أو المسيحية أو أي من الاديان القديمة[١] ».

ويفصل هذا الاجمال اللورد هدلى فيقول:

« نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم ذو اخلاق متينة، وشخصية حقيقية وزنت واختبرت في كل خطوة من خطا حياته، لم ير فيها أي نقص ابدا - وبما أننا نحتاج الى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، فحياة النبي المقدس تسد تلك الحاجة... إن حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخآء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو، وباقي الاخلاق الجوهرية التي تكون الانسانية. ونرى ذلك فيها بالوان وضاءة.

خذ أي وجه من وجوه الاداب وانت تتأكد انك تجده موضحا في إحدى حوادث حياته[٢] ».

أين هذا من تلك التهم الكاذبة التي الصقها الفيلسوف الشهير « جود » في شخص سيدنا عيسى عليه السلام، مما سبقت الاشارة اليه في الفصل السابق؟

ولقد علمت أن « جود » مع إيمانه بأن سيدنا عيسى عليه السلام هو ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - يؤكد أن المسيح هو دون « بوذا » ودون سقراط. وقد مر بك قول عميد كلية الحقوق في جامعة فينا الاستاذ « شيريل » أن البشرية تفخر بانتساب محمد اليها. ويلقي

---

(١) نقلا عن كتاب لماذا اسلمنا صفحة ٤٠.

(٢) اوروبا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ٥٨.

البرفسور بورسورث سمث ضوءاً ناصعاً على هذه الكلمة التي قالها « شيريل » فيقول عن سيدنا محمد ﷺ:

« عندما القي نظرة إجمالية استعرض فيها صفاته وبطولاته، ما كان فيها في بدء نبوته، وما حدث منها فيما بعد، وعندما ارى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة، وكم من البطولات المعجزة احدثوا أجده أقدس الناس، واعلاهم مرتبة، حتى أن الانسانية لم تعرف له مثيلاً[١] ».. ويؤكد هذه الفكرة البرفسور ستوارت فيقول « أنه لا يوجد مثال في التاريخ الانساني باكمله يقارب شخصية محمد... الا ما أقل ما امتلكه من الوسائل المادية، وما أعظم ما جاء به من البطولات النادرة، ولو أننا درسنا التاريخ من هذه الناحية، لا أظن نجد فيه اسما منيرا هذا النور، وواضحاً هذا الوضوح، غير اسم النبي العربي[٢] ».

بل أن المنصفين من رجالات الفكر في « الغرب » بدأوا يؤمنون بأن الدين الذي جاء به رجل فريد في التاريخ، هو ايضاً دين فريد بين الاديان.

يقول « برناردشو » أني أكن كل تقدير لدين محمد لحيويته العجيبة فهو الدين الوحيد الذي يبدو لي أن له طاقة هائلة لملائمة اوجه الحياة المتغيرة، وأنه صالح لكل العصور... وأني أستطيع أن اتنبأ بأن العقيدة التي جاء بها محمد ستلقى قبولاً حسناً في اوربا في الغد، وقد بدأت تجد آذاناً صاغية في أوروبا اليوم[٣] ».

وليس برنادشو وحده هو الذي يرى هذا الرأي؟ فكثيرون غيره

---

(١) الاسلام يتحدى لوحيد الدين خان صفحة ١١٨ نقلا عن كتاب Mohd & Mohammedanism صفحة ٣٤٠.

(٢) المصدر السابق صفحة ١٣٠ - نقلا عن كتاب Islam & Its Founder صفحة ٢٢٨.

(٣) لماذا اسلمنا صفحة ٢٦.

يذهبون هذا المذهب. يقول الدكتور «ليتز» «أنني لأجرؤ بكل أدب أن أقول: أن الله الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها، لو كان يوحي الى عباده، فدين محمد هو دين الوحي. ولو كانت آيات الايثار والأمانة والإعتقاد الراسخ القوي. ووسائل التمييز بين الخير والشر، ودفع الباطل هي الشاهدة على الالهام. فرسالة محمد هي الالهام[1]» - ويقول البروفسور «بوسورت سميث»... أني لأجدني مدفوعاً الى الإعتقاد بأن كلا من الفلسفة العليا والمسيحية الصادقة سوف تضطران يوماً الى التسليم بأنه كان نبياً... نبياً صادقاً من عند الله[2]».

وجاء في كتاب اسمه «المائة الاوائل» للدكتور مايكل هارث ما نصه:

«أن اختياري محمدا ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ قد يدهش القارىء ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي».

«فهناك رسل وأنبياء وحكماء بدأوا رسالات عظيمة ولكنهم ماتوا دون أتمامها كالمسيح في المسيحية أو شاركهم فيها غيرهم أو سبقهم اليها سواهم كموسى في اليهودية، ولكن محمدا هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية كاملة. وتحددت كل أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته - ولأنه أقام الى جانب الدين دولة جديدة، فأنه في هذا المجال الدنيوي أيضاً وحد القبائل في شعب، والشعوب في أمة ووضع لها كل أسس حياتها ورسم أمور دنياها ووضعها في موضع الانطلاق الى العالم... أيضاً في حياته».

«فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية... وأتمها».

---

(١) الاسلام يتحدى تأليف وحيد الدين خان ص١١٦.

(٢) المصدر السابق صفحة ١٢٠ و١٢١ - نقلا عن كتاب محمد والمحمدية Mohamed & Mohammedanism ص ٣٤٤.

«وهو الوحيد الذي نشأ في بقعة من الصحراء الجرداء المجردة تماماً من كل مقومات الحضارة والتقدم»... «بينما الذين غيروا التاريخ ظهروا في قلب احد المراكز الحضارية في العالم... في بيئة متقدمة تبرر ظهور العظماء فيها...».

«كذلك لا يوجد نص في تاريخ الرسالات نقل عن رجل واحد ونُصَّ بحروفه كاملا دون تحوير كل هذا الزمن سوى القرآن الذي نقله محمد الامر الذي لا ينطبق على التوراة مثلاً أو الأنجيل».

«وفي تاريخ الغزو في كل زمان ومكان يكون الغزو عسكرياً - ولكن في حالة الرسالة المحمدية فأن معظم البلاد التي فتحها خلفاؤه استعربت تماماً وتغيرت لغة ودينا وقومية... وبقيت كلها أمة واحدة تتكلم لساناً واحداً حتى الآن».

«فهناك اليوم وبعد ١٤٠٠ سنة خمسمائة مليون مسلم، ولكن هناك بينهم حوالي مائة وخمسين مليون عربي... وهو معيار في قياس اثر الرسالة، أي استمرارها الزمني وثباتها، ليس له مثيل في تاريخ الفتح في العالم...».

هذا ويضع المؤلف السيد المسيح عليه السلام في المرتبة الثالثة، لا الاولى حتى ولا الثانية، مع أنه مسيحي...

ويرى أن قيام الثورة العلمية في أوربا لا يرجع الى تعاليم المسيح، ولكنه يرجع الى العقلانية، الاغريقية التي جسدها أرسطو وأتباعه. فالثورة العلمية والفكرية جاءت مع عصر النهضة (الرينسّانس) وليس مع انتشار المسيحية.[1] ولقد أجمل البروفسور ستوبارت كل ما كتبه الدكتور مايكل هارث عن سيدنا محمد ﷺ في كتابه الانف الذكر «المائة الأوائل» أجمل كل هذا في هذه العبارات، وبدون أية تحفظات، حيث

(١) أنظر مجلة العربي العدد ٢٤١ الصادر في محرم ٩٩هـ(ديسمبر، ١٩٧٨م.)

قال: «أنه لا يوجد مثال واحد في التاريخ بأكمله يقارب شخصية محمد...[١] ». ولقد مر بك قول البروفسور بورسوبرت سمث اذ يقول: أني أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى أن الانسانية لم تعرف له مثيلاً[٢] ».

هذا هو رأي غير المسلمين من المنصفين عن رسول الاسلام سيدنا محمد ﷺ، وهذا رأيهم عن الاسلام.

أين هذا من رأي غير المسلمين في المسيحية، بل أين هذا من رأي المفكرين المسيحيين في سيدنا عيسى عليه السلام حتى حين يدافعون عن المسيحية كما رأيت من أقوال بعضهم كالعلامة الكبير « جود ».

كل هذا مما يجعل المد الاسلامي كاسحاً، رغم كل المحاولات المغرضة التي تحاول اضعافه والنيل منه.

والواقع «أنه يوجد الآن في جميع أنحاء أوربا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام، واذا كان هذا الامر لا يزال قليل الأهمية اذا نظرنا الى قلة عدد المعتنقين - وأن كان عددهم لا بأس به - فأنه ذو أهمية كبرى نظرا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون الى الطبقات الراقية المتعلمة ونذكر منهم على سبيل المثال اللورد هدلي، الانجليزي وصديقنا المأسوف عليه المرحوم «كرستيان شرفيش» أحد تلاميذ «أوغست كومت» وأديبا من أدباء فرنسا المعدودين وفيلسوفا من فلاسفتها المشهورين »[٣].

هذا غيض من فيض مما يمكن أن يقال عن الديانة الاسلامية... فمن أي طريق يمكن أن يتسرب الالحاد الى معتنقي هذه الديانة؟

---

(١) أنظر الاسلام يتحدى صفحة ١٣٠ نقلا عن كتاب Islam & Its Founder.

(٢) المصدر السابق ص١١٨نقلا عن كتاب Mohamed & Mohammedanism.

(٣) أوروبا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمود صفحة ٦٧ نقلا عن «أشعة خاصة بنور الاسلام تأليف «النونس آ. دينيه.

إن الالحاد كالذباب والهوام التي تنشأ ولا تعيش إلا في القذر والأوساخ، فهو لا ينمو، ولا يــــــــترعرع، ولا يقوى إلا في أجواء «الخزعبلات» والخرافات، التي يقول ليكونت دينوي - فيما نقلناه عنه في فصل سابق - انها تغص بها الديانة المسيحية، وتنوء بحملها الاناجيل والتي نعتبر نحن المسلمين أنّ المسيحية منها براء، وأن المسئول عنها هو «الجزء الاكبر» الذي أضافهُ الإنسان إليها «بشهادة الاسقف ((تامبل)) التي اوردناها بنصها وفصّها فيما سبق، أما الديانة التي تقوم على العلم والتي «كان اهم ما جاءت به العلم[1]» - كما يقول بريفولت في كتابه Making Of Humanity، والتي تحترم العقل وتجعله اساس العقيدة، والتي تحارب الخرافات والخزعبلات، والتي لا يداني تشريعها تشريع، ولا يداني رسولها مصلح... بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء.

إنَّ ديانةً كهذه لا يمكن أن تسمح للإلحاد، لو أن النهضة العلمية الحديثة قامت على أكتافها أو ترعرعت بين ظهرانيها... وحين نسفت النهضة العلمية المسيحية وقوّضت أركانها وجعلتها قاعا صفصفا، وحدث هناك «فراغ» ضخم، لم يكن بد من أنْ يُملأ، وقفت المسيحية في وجه الاسلام حتى لا يملأه! فوجد الالحاد الطريق معبدا. والمهمة يسيرة ووجدت الشيوعية (التي تقوم على الالحاد) مرتعا خصبا... ثم التفتت المسيحية الى البلاد الاسلامية فهالها أن يكون فيها دين، «حسدا من عند أنفسهم» كما يقول القرآن الكريم - ولما كانت تعلم أن تنصير المسلمين مستحيل، مادامت المسيحية لم تصلح حتى لاهلها ولما علمت أن الالحاد وهو البديل المفضل لديها - لا ينمو الا في أرض الخرافات والترهات والاباطيل عمدت على نسج هذه الترهات وهذه «الخزعبلات» وشوهت بها صورة الاسلام - باسم العلم كما تقدم - ليهرع المسلمون من دينهم الى الالحاد والى الشيوعية والى فصل الدين عن الدولة، والى

(١) نقلا عن كتاب «الله أو الدمار صفحة ٦٦ - وقد سبقت الاشارة الى النص كاملا قبل قليل.

إبعاد العقل من ساحة الدين مصداقا لقوله تعالى: (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) ولكن انعكست الآية فبدأ الاسلام يغـزو المسيحية في عقر دارها، ويحتل معاقلها شيئاً فشيئاً وبدأت راية الاسلام ترفرف، خفاقة حَتَّى في أمريكا وفي اوربا.

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق».

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الباب السادس

ما هو البديل لنظرية التطور

لقد سبق أن ذكرنا رأي العلماء الذين يرون أنّ البديل الوحيد لنظرية التطور هو نظرية «الخلق المباشر»، وهو بديل - فيما نقلنا عنهم - «لا يمكن حتى مجرد التفكير فيه».

هل مازال الحال كما كان عليه؟

الواقع أنه بعد الضربات المميتة التي أثخنت نظرية التطور، وبعد الحملات الضارية التي نسفت الأساس الذي تقوم عليه، رجعت عقارب الساعة إلى الوراء وغَيَّر اللهُ من حال إلى حال...

ولِكَيْ تدرك مدى هذا التحول البالغ الخطورة، استمع الى واحدٍ من أهل الشأن، وأرباب الكلمة في هذا الميدان.

الأستاذ Thomas H. Huxley يتكلم: -

«Creation, in the ordinary sense of the word, is perfectly conceivable. I find no difficulty in conceiving that, at some former period, this universe was Not in existence, and that it made its appearance in six days (or instantaneously if that is preferred), in consequence of the volition of some pre - existing Being. Then, as now, the so - called a priori arguments against theism and, given a Deity, against the possibility of

creative acts, appeared to me to be deovid of reasonable foundation[1].»

فالخلق المباشر في نظر هذا العالم الجليل - وهو يتكلم باسم العلم - «ليس أمرا مفهوماً ومستساغاً فحسب، بل مفهوم ومستساغ ايضاً أن يكون هذا الكون قد خلق في ستة ايام، (أو دفعة واحدة، إن شئت). إن أية فكرة ترفض وجود الخالق أو تعارض إمكانية «الخلق»، لا تقوم على أساس من العقل والمنطق».

بل إن نظرية الخلق المباشر أصبحت عند كثير من العلماء، أفضل بكثير من نظرية التطور... لنستمع الى واحد من أهل الكلمة والاختصاص وهو يؤكد هذه الفكرة: يقول البرفسور DUANE T. GISH:

«In fact to many well-informed scientists, creation seems to be far superior to the evolution model as an explanation for origins.[2]

ما هو الاساس الذي تقوم عليه نظرية «الخلق المباشر»؟

الواقع أنه نفس الأساس الذي ترتكز عليه نظرية التطور - السجلات الصخرية التي انطبعت فيها آثار الكائنات الحية، طبقة، بعد طبقة، من قديم الزمن حتى اليوم.

ويؤكد العلماء «الأحرار» أن هذه «السجلات الصخرية» حين تخذل نظرية التطور، وتتحداها، وتكذبها، كما رأيت من قبل وكما سترى، تكون مائة في المائة في صالح نظرية الخلق المباشر، من غير شذوذ وبدون تعسف أو تخرصات.

---

(١) نقلا عن مجلة The American Biology Teacher عدد مارس سنة ١٩٧٣م صفحة ١٤٠.
(٢) المصدر السابق صفحة ١٣٤.

ولنترك الكلمة للبرفسور Duane T. Gish:

«ليست هناك ظاهرة تستعصي على الحل أو التفسير في نطاق نظرية الخلق المباشر الخاص، في حين أن كل الشواهد تخذل نظرية التطور خذلانا تاماً من جميع الوجوه.[١]»

ولنضرب بعض الامثلة التي تؤيد ذلك (وان كان قد مر بك أكثرها، في فصل سابق):

١ - المستحاثات «Fossils» التي ترجع الى العهد الكمبري Cambrian تنمّ عن حيوانات معقدة، وعلى أساس نظرية التطور لا بد أن تكون سبقتها حيوانات أقل تعقيداً.. ولكن « السجلات » تنفي ذلك نفياً باتاً مما يعتبره حتى التطوريون. أعظم لغز في تاريخ الحياة، خاصة اذا نظرنا الى أن الصخور فيما قبل العهد الكمبري «Pre-Cambrian» كانت صالحة للتسجيل.

هل يعني هذا شيئاً سوى الخلق المباشر؟

٢ - ليس في السجلات ما يثبت دعوى نظرية التطور التي تقول أن الحيوانات الفقرية تطورت من اللافقرية.. ماذا يعني هذا؟ هل يعني شيئاً سوى الخلق المباشر

٣ - كون الطيور تطورت من الزواحف مجرد افتراض لا تقدم عليه نظرية التطور - استنادا على السجلات الصخرية - أي دليل.. ماذا يعني هذا؟ والغريب أن بعض « التطوريين يفسرون تطور الطيور من الزواحف، بأن زاحفا «Reptile» « باض مرة بيضة، فلما فقست البيضة لم يخرج منها زاحف كما هو منتظر، وإنما خرج منها طائر، هو الجد الأعلى لبقية الطيور. والله

(١) أنظر مجلة The American Biology Teacher عدد مارس سنة ١٩٧٣م صفحة ١٣٨.

هكذا يقول Goldschmidt[1] على جلالة قدره. أية خرافة في الدنيا تداني أو تقرب من هذه الخرافة التي يبرأ منها العلم ويتبناها محض التضليل.

٤ - والوطواط Bat - متى، وممّ، وأين، وكيف ظهر؟ علامات استفهام حائرة لا تجيب عليها الا نظرية الخلق المباشر. لا نظرية تتبنى الخرافات حين يعوزها البرهان.

٥ - كيف ظهرت السلاحف والزواحف، ومن أي نوع تطورت؟ أمر لا تستطيع نظرية التطور تعليله، بل أنها تبدو وكأنها ظهرت فجأة، فما معنى ذلك؟ لا شيء غير الخلق المباشر - هكذا يقول العلماء «الأحرار».

٦ - ونفس الشيء، فيما رويناه سابقا عن ليكونت دينوى، ينطبق على الثدييات.

٧ - حتى الروابط التسلسلية التي تخيلوا أنها أشكال وسطية تنتهي بالحصان «تبدو وكأنها ظهرت فجأة؟» فما معنى ذلك؟ المعنى مفهوم لمن لم يضله الله على علم.

٨ - ولقد مر بك قول ليكونت دينوي «من المستحيل ايجاد رباط حقيقي بين مجموعة قديمة ومجموعة حديثة، ولذلك فإننا نتساءل عما اذا كان الانتقال من مجموعة الى أخرى بصورة فجائية؟ نقول وما هو المانع من ذلك، وهل ما وعته السجلات الصخرية من مستحاثات يشير الى غير ذلك؟

٩ - ولقد مر بك أيضا قوله «يمكننا أن نقول إنه ليس هناك شكل يعيش حالياً وهو سلف مباشر لشكل آخر - ومعنى هذا أن كل شكل وجد كما هو؟

---

(١) أنظر مجلة The American Biology Teacher عدد مارس سنة ١٩٧٣م صفحة ١٣٩.

وهل في سجلات التطور الطبيعية ما يشير الى خلاف ذلك؟

الى أي شيء تشير السجلات التي تستند عليها نظرية التطور؟

يقول البرفسور .Duane T. Gish

«أنها تنادي بالخلق المباشر؟ انها تفصح عنه في آكد عبارة، وأقوى بيان»[١] «حتى ما حفظته السجلات الصخرية عن النباتات، ينادي بأعلى صوته الخلق المباشر، الخلق المباشر ليس الا؟ - لكن لا يسمع هذا النداء الا من تحرر من الغرض والهوى كما يقول الاستاذ E. J. H. Corner[٢].

(١) أنظر مجلة The American Biology Teacher عدد مارس سنة ١٩٧٣م صفحة ١٣٨.
(٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٣٩.

الباب السابع

الداروينية ومقررات الاديان

اتضح لك مما سبق أن أي سلاح امتشقه الملاحدة ليحاربوا به الايمان بوجود الله تناوله منهم المؤمنون، وقوضوا به أركان الالحاد، وأثخنوا به صدور الملحدين. فالمصادفة - بناء على حساب الإحتمالات - لا تستطيع أن تأتي بهذا الكون؛ والطبيعة إنّما هي شيء موهوم أجلسوه على عرش الالوهه، ونسبوا له كل ما للاله من صفات؛ ونظرية التطور حتى لو قدر لها أن تصح في يوم من الأيام - وهو أمر مستحيل - فإنها مفتقرة الى موجه يوجِّهها هذه الوجهة ويستخدمها لتثبيت أركان هذا النظام الذي نراه في الكون، وقد مر بك تفصيل ذلك كله.

ولا يخفى أن معظم العلماء، مع إيمانهم بنظرية التطور، على علاتها، مؤمنون أيضاً بوجود آله موجه لهذا التطور، وتعتبر نظرية التطور نفسها من مقومات هذا الايمان ومقوياته عندهم. وها هو (الفردرسل ولاس) «شريك دارون في القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي وعوامل البيئة الطبيعية قد كان مؤمناً قوي الايمان بوجود الاله، وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سبباً لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات وأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل في الطبيعة أنّها لا تجري على هذا المجرى لزاماً بحكم العقل، أو بحكم التفكير المنطقي، وأنها كان يجوز أن تجري مجراها هذا أو على مجرى يساويه ويماثله في حكم العقل والأقيسة المنطقية، وانما هي الارادة التي أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل، فليست المعجزة التي يريدها الله أغرب من نظام العوامل المطردة في ظواهر الكون، ومرجعها جميعاً إلى الارادة الالهية على اطِّراد أو على استثناء[١]».

(١) الانسان في القرآن الكريم للأستاذ العقاد طبعة دار الهلال صفحة ١٢٩.

أما (دارون) فلا شك أن موقفه من الايمان بوجود الخالق يكتنفه كثير من الغموض، ولكن الواضح من خطاباته أنه لم يؤخذ من جهة نظرية التطور نفسها وأنما جاءته الطامة من «الشر» الذي يحيق بالعالم، والذي لم يستطع أن يجد هو له تفسيرا. ولا يهمنا في كثير ولا قليل أن يكون دارون مؤمنا أو ملحدا. وانما الذي يهمنا هو أن نظرية التطور كما شرحها أقطابها لا تنفي وجود الخالق بحال من الأحوال كما أثبتنا ذلك فيما سبق.

يقول الاستاذ العقاد عن دارون «أنه قد عاش بقية حياته مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضي من العقل أن ينفي وجود الله، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده، وأن الايمان بأي ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل في قضية التطور الى الرفض أو الى القبول[1]».

ويقول الاستاذ: ج. هـ. جلاد ستون عضو مجمع العلوم الملكي «ونحن ندين بأن مذهب دارون عن بقاء الانسب لا يبطل فكرة التدبير الالهي، أو فكرة النظام المقصود، بل يؤيد هذه الفكرة، ويمهد لنا سبيل النظر الى الوسائل التي اختارتها العناية الالهية لتدبير مقاصدها منذ القدم...[2]».

يبقى بعد ذلك مقررات الاديان، أي ما جاء في الكتب السماوية مما يدخل في عملية الخلق والتكون، هل يتناقض أو يتماشى مع ما يذهب اليه التطوريون، حتى المؤمنون منهم بالله.

أما المسيحية فلا يمكن أن توفق بين نظرية التطور - لوصحت - وبين المفهوم من صريح ما جاء في الانجيل، أو ما أثر عن أقطاب المسيحية بعد السيد المسيح عليه السلام كما يقول العلامة الفرد نورث

---

(١) أنظر الانسان في القرآن الكريم للأستاذ العقاد ص١٢٩.
(٢) نقلا عن المصدر السابق صفحة ١٣٠.

هوايت هيد[١].

وغني عن البيان أن « هوايت هيد » هذا يختلف في هذه الناحية من الاب (نابرباور) Knaberbauer الذي يقول - فيما نقله الاستاذ العقاد - «أن أصول الاعتقاد التي اشتمل عليها سفر التكوين تبقى ثابتة غير ممسوسه ولو فسرنا الأحوال التي نشأت فيها الانواع وفاقا لقواعد التطور»[٢].

على كل حال لا بد من الاشارة الى الضجة العارمة التي أثارتها هذه النظرية إبان ظهورها، والتي ما زالت تتردد اصداؤها حتى اليوم، والتي يفترض أن تبين رأي الكنيسة الحقيقي في المسألة.

فقد أعلن أسقف أكسفورد - وهو من أكبر العلماء - في خطبة القاها أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني « أن دارون ارتكب أشنع جريمة حينما حاول أن يحدد مجد الله في فعل الخلق[٣] » واتهم الكاردينال « ماثنغ » مذهب دارون بأنه « فلسفة وحشية تؤدي عقلا الى انكار الاله[٤] » وقال - مسه غور في فرنسا - « أن مذهب دارون من المذاهب المرذوله التي لا يؤيدها الا أحط النزعات وأسفل المشاعر فأبوها الكفر وأمها القذارة[٥] » « ودعا أحد علماء اللاهوت في سويسرا الى القيام بحرب صليبية ضد هذا المذهب الخاطيء المفسد[٦] » « وفي الكلية الأميركية في بيروت طرد الاساتذة الذين ظهر أنهم يقولون بمذهب دارون[٧] » وقال الدكتور « هدج » من جامعة برنستون « يجب منع نشر أمثال هذه المذاهب التي تنافي الكتب المقدسة[٨] ».

أما الاسلام فعلماؤه وقفوا من النظرية مواقف مختلفة فبعضهم يرى

---

(١) أنظر: - ص١٦٣ (New American Library) Science & the modern world.

(٢) انظر عقائد المفكرين للاستاذ العقاد ص٥٨ (مكتبة الانجلو المصرية)

(٣) الى (٨) أنظر قصة الايمان - تأليف - الشيخ/ نديم الجسر صفحة ١٩٣، ١٩٤ الطبعة الثالثة لسنة ١٩٦٩م.

أنه ليس فيه ما يناقض نظرية التطور إن كتبت لها الصحة في يوم من الايام[١].

يقول الشيخ محمد رضا آل العلامة التقي الاصفهاني فيما نقله الاستاذ العقاد في كتابه القيم الانسان في القرآن الكريم ما نصه ((أن فلسفة النشوء والارتقاء ليست مما ينافي الدين، اذ الذي يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات باراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات صنع اله واحد قادر حكيم وسع كل شيء علماً وأتقنه صنعا، خلق جميع الانواع عن قصد واختيار. وهذا أمر متفق عليه في جميع الاديان وأما كيفية الخلق، وأن هذه الأنواع كلها خلقت خلقاً مستقلا ووجدت من كتم العدم ابتداء، وانها لم تتغير عما وجدت عليه في أوائل الخلق فهذا امر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة[٢])). ويقول الأستاذ العقّاد. والذين انكروا مذهب التطور يحق لهم أن ينكروه من عند انفسهم لانهم لم يطمئنوا الى براهينه ودعاواه، ولكنهم لا يجوز لهم أن ينكروه استناداً الى القرآن الكريم لأنهم لا يملكون أن يفسروا خلق السلالة الآدمية من الطين على نحو واحد يمنعون ما عداه، وكل ما يجوز لهم أن يوجبوا الايمان بأن الله تعالى سوى الطين وبث فيه روح الحياة فصنع منه السلالة التي نشأ منها آدم عليه السلام، فأما أن يحتموا كيفية التسوية وكيفية النفخ وكيفية خلق السلالة، والزمن الذي خلقت فيه فهو ادعاء على القرآن لا يقبل منهم على وجه من وجوه النفي أو وجوه الاثبات[٣]».

ولعل أول من ذهب الى ذلك، أو أول من جاهر بذلك هو الشيخ حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية وقد أسهب في تأييد هذا

---

(١) وهو فرض من قبيل المحال.

(٢) الانسان في القرآن الكريم صفحة ١٠٦ «طبعة دار الهلال».

(٣) الفلسفة القرآنية صفحة ٢٠٥ الطبعة الثانية دار الكتاب العربي. ١٩٦٩ م.

الرأي[١]... وربما ذهب الاستاذ محمد فريد وجدي في تأييد هذا المذهب الى أبعد مما ذهب اليه هذان العالمان الجليلان - استمع اليه وهو يقول: -

((أن هؤلاء الناس الذين يعادون قوانين مذهب دارون كله لأجل نتيجته لا يدرون أنه قد أقام أقوى البراهين الحية على حقائق قرآنية كان الغربيون لولاه يتوهمون انها جهاتنا الضعيفة التي يبرهنون بها على عدم حقية ديننا[٢])).

ويبدو أن مذهب التطور من حيث هو لا يختلف مع القرآن الكريم، اذا روعيت الاصول الاخرى. فقد قال به في صورة من صوره اكثر من مفكر اسلامي مرموق، ولم يتهم احد منهم بالكفر بسببه، من أمثال ابن مسكويه وابن خلدون، وغيرهما[٣] ولا شك انه لو كان هناك تعارض واضح بين مذهب التطور وبين القرآن الكريم، لما سكت المسلمون عمن قال به او ذهب اليه من المسلمين، مهما بلغ من المكانة والعلم.

هذا وقد وقف آخرون من النظرية موقفاً بين « اللاأدرية » وبين الرفض المطلق وخير من يمثل ألا أدرية في هذا المجال هو البحاثة الاسلامي الكبير الاستاذ محمد الغزالي فقد قال في عدد مجلة الدعوة (القاهرية) أن نظرية التطور ما زالت نظرية والى أن تصبح حقيقة علمية يمكن النظر في موقف القرآن منها.

وهو كلام ما كان ينبغي أن يصدر من عالم جليل مثله، لأسباب

---

(١) أنظر ما نقله عنه الاستاذ الشيخ نديم الجسر في كتابه « قصة الايمان » من ص٢٠٨ الى ص٢١٧ (منشورات المكتب الاسلامي، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

(٢) انظر (ملحق الانسان في عصر العلم) المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٣٥٠ هـ صفحة ١٠٠.

(٣) على سبيل المثال راجع مقدمة ابن خلدون، ورسائل أخوان الصفا، وما نقله الاستاذان الكبيران العقاد والجسر عن ابن مسكويه في كتابه « الانسان في القرآن الكريم للأول، وقصة الايمان للثاني.

ثلاثة. الأول منها هو أنه يكفي أن شهد هو لها بأنها ((نظرية)) وهذا هو كل ما يطلب منها من الناحية العلمية؛لو قال انها مجرد فرض أو حدس لم يرق بعد الى درجة ((النظرية)) لاستقام له الرأي وأن كان هذا الرأي سيطرح سؤالاً آخر هو لماذا سميت (نظرية) وهي مجرد فرض أو حدس لم ((يبلغ الرشد)) بعد - فيصبح نظرية. السبب الثاني، هو أن النظرية - أي نظرية - مهما كان أمرها لن تكون حقيقة علمية[1]. السبب الثالث هو: هل فكر الاستاذ الغزالي فيما يترتب على مسلكه هذا من الناحية العلمية؟ ينبغي أن ننتظر عشرات بل مئات ربما الوف السنين حتى تتحطم هذه النظرية، او يقدر لها أن تقوم على قدمين، وماذا نفعل نحن طيلة هذه المدة التي قد تكون بلا نهاية؟ نقف مشدوهين نتفرج على ابنائنا - نحن المسلمين وهم يدرسون هذه النظرية، لا على انها نظرية، بل على انها حقيقة علمية لا تقبل الجدل - حتى في المدارس المصرية[2] - واذا سأل طالب استاذ الدين ليبين له حكم الله فيها. قال له ما قال له الاستاذ الغزالي اي أنه لا يدري حكم الله فيها، ولعل احفاد احفاده يهتدون الى ذلك، وتصور الدهشة التي تتملك الطالب، وتصور الأثر الذي ينجم عن ذلك.

وهناك سبب رابع ستتضح لك أبعاده بعد لحظات.

وخير من يمثل الرافضين للنظرية فضيلة العلامة الكبير والبحاثة القدير الشيخ محمود شلتوت - وقد بنى رفضه للنظرية على مقدمتين[3]. المقدمة الأولى: أن نظرية التطور ((لم يدل عليها برهان، ولم يشهد بصحتها حس أو تجربة)). وقد قرر الدين - كما يقول الاستاذ

---

(١) انظر ما نقلناه عن جهات الاختصاص في أخريات الفصل الاول من هذا الكتاب بعنوان (هل نظرية التطور ثابتة علميا) وأرجو ملاحظة الفرق بين ثابتة علميا وبين حقيقة علمية ص ٣٥ إلى ص ٤١.

(٢) انظر مجلة الدعوة (القاهرية) الصادرة في ذي الحجة سنة ١٣٩٦ هـ.

(٣) انظر كتاب ((الفتاوى)) صفحة ٣٦٩ فما بعدها - طبعة الادارة العامة للثقافة الاسلامية بالازهر (جمادى الاخرة سنة ١٣٧٩ - ديسمبر ١٩٥٩ م).

شلتوت رفض كل الفروض التي من هذا القبيل، فلا غُرو إذنْ أن يرفض نظرية التطور.

المقدمة الثانية: أن نظرية التطور تخالف صريح القرآن، كما يقول الاستاذ شلتوت مستدلا بقوله تعالى ((لقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون الى غير ذلك من الآيات التي في هذا المعنى...)).

ونظرة واحدة الى هاتين المقدمتين تريك ما بهما من فساد ودخل وتصور لك مدى خطورة صدور مثل هذه الأحكام الكاسحة بخاصة من رجال لهم وزن مثل الاستاذ شلتوت والاستاذ الغزالي، ومن لف لفهما.

أما أن نظرية التطور لم يدل عليها برهان ولا حس ففيه من الغلو مالا يليق أن يصدر من رجل في مكانة الاستاذ شلتوت وعلمه، خاصة ونظرية التطور تحظى بقبول جمهرة العلماء اليوم، ولا يمكن أن تنال هذا القبول الجماعي - أو الشبه الجماعي - من أهل الاختصاص وهي مجرد «وهم» لا يقوم عليه دليل ولا يشهد بصحته حس.

والذي لا شك فيه أن هنالك من الادلة العلمية ما يبرر لاول وهلة - ميل العلماء لقبول نظرية التطور. صحيح أن هذه الأدلة - في جملتها وفي آحادها - ليست قطعية الدلالة ولا حتمية النتيجة، كما أن بها من القصور والتخلف ما سبق أن أوردنا لك طرفا منه، ولكن هذا لا ينفي أن هناك أدلة ولا ينفي ما لهذه الادلة من الوزن والاعتبار، واذا كان القول بأن نظرية التطور اصبحت ثابتة من الوجهة العلمية ثباتاً لا يقبل الجدل، اذا كان هذا القول خطأ، فخطأ مثله أن يقال أن نظرية التطور ضرب من الاوهام والظنون، والحدس والتخمين.

وأما أن نظرية التطور تعارض صريح القرآن، فمسألة فيها نظر على أقل تقدير وذلك اذا اخذنا في الاعتبار أقوال من لا يوافقون الاستاذ شلتوت من مشاهير العلماء.

على أن الآيات الشريفة القائلة بخلق الانسان من صلصال أو ما الى ذلك لا تنفي مبدأ التطور من حيث هو. والا لفهمنا منها أن ابانا ادم عليه السلام، لم يخرج عن كونه تمثالا من الطين نفخ الله فيه الروح، وجعله يتصرف تصرف من نسميهم الآن الآدميين، وحفظه من الامطار حتى لا يذوب، أو جعله بقدرته طينا غير قابل للذوبان بالماء - Waterproof وهذا ما لا يقول به عاقل فضلا عن مسلم، فلا شك أن هذا الطين أو هذا الصلصال - تطور بقدرة الله ومشيئته الى لحم وعظم أو الى مخلوق من لحم وعظم. كيف تطور - أو طُوِّر - هذا الطين الى هذا المخلوق، او كيف صار - أو صُيِّر - الى هذا المخلوق هذا ما سكت عنه القرآن الكريم، وكيف يتعارض ما يقوله العلم مع ما سكت عنه القرآن.

لا يفهم من هذا أننا نقول بموافقة نظرية التطور للقرآن الكريم، ولكنا نقول أن نظرية التطور - لو قدر لها أن تقف على أساس ثابت[١] - لا تتعارض مع القرآن الكريم فأن الحق الذي لا مرية فيه أن القرآن قال بمبدأ التطور، صراحة في خلق بني آدم من ماء مهين، ولزوما في خلق أبيهم آدم من صلصال، أو طين، كما أن القرآن سكت عن طريقة هذا التطور وكيفيته، وما سكت عنه القرآن فهو محل للاخذ والرد بدليل وبغير دليل.

إن أول ما يتجه اليه الشاب المثقف المعرض للتيارات المناوئة للايمان حين يقرأ كلاماً للمتخصصين في العلوم الدينية، يتناولون مسألة من مسائل العلم،... أول ما يتجه اليه هذا الشاب هو التعرف على صحة الأساس العلمي الذي يقوم عليه الحكم الديني في المسألة، ذلك لأن ثقته ضعيفة في محصول علماء الدين من العلوم الكونية، او العلوم

---

(١) وهو فرض مستحيل الوقوع.

الحديثة - على الاقل بحكم التخصص، فإذا وجد هذا الشاب أن الأساس العلمي الذي ينبني عليه الحكم اساس منهار، انهارت ثقته - الضعيفة اصلا - في كل ما يقوله أمثال هؤلاء العلماء «الدينيين»، ونفرت نفسه من قراءة كتاباتهم التي قد يكون هو أحوج ما يكون اليها، والتي ربما انتفع بها لو لم تتحطم ثقته في مثلها وربما اصبح داعية سؤ ينفر من قراءة أمثال هذه الكتابات.

تصور شابا مثقفاً يقرأ لامثال تيلهارد تشاردن وهو يعتبر من أعظم المفكرين المعاصرين أو مثل البرفسور س.س. سمبسن وغيرهما ممن نقلنا شطحاتهم العلمية المضللة التي يصورون فيها نظرية التطور بأنها «الاله الذي تنحني له جميع النظريات وجميع الفروض الخ الخ».

تصور شابا مثقفا يقرأ لأمثال هؤلاء ماذا يكون موقفه لا من النظرية وحدها، بل من كل ما قاله الاستاذان الجليلان ومن كل ما درسه من أمثالهما من الاساتذة عن الدين في الجملة؟ بل ومن كل وما وصله من معلومات؟ صحيح أن هذه الاراء التي أوردناها لهؤلاء العلماء الاعلام لا تعدو أن تكون شطحة من شطحاتهم لا لأن كثيرين غيرهم لا يذهبون هذا المذهب فحسب، ولكن لأن في اقوال هؤلاء أنفسهم ما يحد من غلواء هذا السعار، ويضيق من دائرة هذا التعميم[١]، ولكن هذا كله لا يجرد نظرية التطور من أساس من العلم شبّه للعلماء أنها تقف عليه، «صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته» على الأقل، فيما روينا لك من كلام العقاد، وهذا وحده كاف لأن يحدث أسوأ الأثر في نفوس الشباب حين يقرأون أمثال تعليقات الشيخ الغزالي، أوفتاوى الشيخ شلتوت مما لم يتخصصوا فيه، أو يعدّوا له العدة الكافية التي تقي المسلمين شرور تخبطهم فيه.

---

(١) قد فصلنا ذلك في موضعه. انظر الفصل الاول من الباب الثاني من هذا الكتاب.

قد يعتذر للأستاذ الغزالي - في المقال الذي نشرته جريدة الدعوة القاهرية بأنه كان يعقب تعقيبات خاطفة وربما مقتضبة، على نظرية التطور؛ على أن هذا لا يعفيه من التبعة، ذلك لأن المتخصصين في العلوم الدينية يُحاسبون حسابا عسيراً على كل كلمة أو حرف حين يخوضون في موضوع من مواضيع العلوم الكونية - الحديثة... ولا ينصب هذا الحساب العسير او يقتصر عليهم، وانما ينصب على الدين جملة وتفصيلاً، وتستغل تصوراتهم للمسائل العلمية في خدمة الالحاد، ما لم تقم على أساس صحيح.

ثبت المراجع العربية

المرجـــــع	المؤلـــــف
الصاوي على الجلالين	
الله	عباس محمود العقاد
الله يتجلى في عصر العلم	لفيف من المفكرين
الانسان في القرآن الكريم	عباس محمود العقاد
عقائد المفكرين	عباس محمود العقاد
ما يقال عن الاسلام	عباس محمود العقاد
الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد
الاسلام يتحدى (معرب)	وحيد الدين خان
الاسلام ونظرية داروين	الاستاذ محمد أحمد باشميل
الاسلام بين الانصاف والجحود	محمد عبد الغني حسن
الاسلام على مُفْتَرَق الطرق (معرب)	محمد أسد
يوم الاسلام	أحمد أمين
اوروبا والاسلام	عبد الحليم محمود
تاريخ الاسلام السياسي جـ٢	حسن ابراهيم حسن
العلم يدعو للايمان	ترجمة محمود صالح الفلكي
قصة الايمان	الاستاذ نديم الجسر
موقف العقل والعلم والعالم جـ١ وجـ٢	الاستاذ مصطفى صبري
مواقف حاسمة في تاريخ العلم	جيمز. ب. كونانت تعريب الدكتور أحمد زكي

الدين والعلم	احمد عزت تعريب حمزة طاهر مراجعة عبد الوهاب عزام
ملحق الانسان في عصر العلم	محمد فريد وجدي
تاريخ الفلسفة	يوسف كرم
مصير البشرية	ليكونت دينوى ترجمة احمد عزت وعصام احمد
حوار مع صديقي الملحد	الدكتور مصطفى محمود
رحلتي من الشك الى الايمان	الدكتور مصطفى محمود
مذهب النشوء والارتقاء	منيرة علي الغاياتي
نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها	قيس القرطاس
مقدمة ابن خلدون	
قصة الحضارة جـ٣	ديورانت ترجمة زكي نجيب محمود
تحت شمس الفكر	توفيق الحكيم
التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام	محمد الغزالي
فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة	حجة الاسلام الامام الغزالي
الله او الدمار	دولة سعد جمعة
لماذا أسلمنا	ترجمة الشيخ قاسم حمد الثاني (دولة قطر)
الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي	الدكتور محمد البهي
الفتاوى	محمود شلتوت
طبائع الأحياء	بروك ويرث وروبرت اندرز ترجمة حافظ حلمي
قذائف الحق	محمد الغزالي
القرآن والعلم	محمد جمال الدين الفندى

حياة محمد	**الدكتور محمد حسين هيكل**
دفاع عن الاسلام	**لورياڤيتشيا فاغليري ترجمة منير البعلبكي**
مجلة الدعوة(القاهرية)	**العدد السادس ذو الحجة سنة ١٣٩٦هـ**
جريدة أخبار العالم الاسلامي (السعودية)	**عدد رقم ٥٢٣ بتاريخ ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣٩٧ هـ**
مجلة العربي	**عدد رقم ٢٤١ المحرم سنة ١٣٩٩ هـ (ديسمبر سنة ١٩٧٨ م)**

ثبت المراجع الأجنبية

Changing Aims in Religious education	**Edwin Cox**
The Existence of God	**Edited by John Hick**
Introduction to Metaphysics	**C.H. Whilely**
Recovery of Belief	**C.E.M. Joad.**
The phenomenon of Man	**Pierre Teilhard De Chardon**
Outline of History (Revised edition)	**H. G. Wells.**
Fanaticism, Intolerance and Islam	**Khorsheed Ahmad**
We Believe in God	**A number of Thinkers.**
This Mysterious Universe	**Sir James Jeans**
Fundamental Problems of Philosophy	**Stephen Kerner**
Fundamental Questions of Philosophy	**Ewing**
Modern Theories of the Universe	**James A. Colman**
Darwinism	**Alfred Russel Wallace**
Comparative Religion	**Boquet**
Affinity Between The Original Church of Christ and Islam	**Lord Hedley**
Science and the Modern World	**Alfred N. Whitehead**
The Religion of Islam	**Dr. Ghalwash.**
Why I am Not a Christian	**Bertran Russel**
History of Western Philosophy	**Bertran Russel**

Encyclopedia Britanica 1953
Vol–5
Encyclopedia Britanica 1968
Encyclopedia Britanica 1972.
Vol–3

The American Biology Theacher	**March 1973**
Islamic Thought	**December 1961**
American Scientist	**1952–Issue No. 40.**
Science	**1958– Issue No 127**
Statesman Weekly (India)	**23rd Feb. 1980**
Islamic Review	**December 1951**

فهرس المحتويات

تقديم الكتاب بقلم الدكتور محمد علي البار .... ٥ – ١٢

المقدمة .... ١٣ – ١٨

الباب الأول: مدخل .... ١٩ – ٣٢

الباب الثاني: تقويم عام

الفصل الأول: هل نظرية التطور ثابتة علمياً ..... ٣٥ – ٤١

الفصل الثاني: الأساس الذي
تقوم عليه النظرية .... ٤٢ – ٤٦

الفصل الثالث: المسلمات التي تنبني عليها
النظرية .... ٤٧ – ٥٠

الفصل الرابع: نظرية التطور هل تفسر
تطور الأنواع .... ٥١ – ٥٧

الفصل الخامس: من المسلمات الى الخرافة
الى الارهاب .... ٥٨ – ٦٧

الباب الثالث: الطبيعة والمصادفة

الفصل الأول: تمهيد .... ٧١ – ٧٤

الفصل الثاني: الطبيعة هل هي اله بديل ولماذا ..... ٧٥ – ٨٨

الفصل الثالث: المصادفة هل تفسر الخلق .... ٨٩ – ١٠١
بلا خالق

الباب الرابع: العوامل التي ساعدت...

الفصل الأول: عامل الشر .... ١٠٥ - ١٣٥

الفصل الثاني: علم الأديان المقارنة .... ١٣٦ - ١٤٠

الفصل الثالث: المسيحية .... ١٤١ - ١٥٩

وصل: الفيلسوف جود يتجنى على السيد المسيح ..... ١٦٠ - ١٦٦

الباب الخامس: استطراد لا بد منه .... ١٦٧ - ١٨٤

الباب السادس: ما هو البديل لنظرية التطور ..... ١٨٥ - ١٩١

الباب السابع: الدارونية ومقررات الأديان .... ١٩٣ - ٢٠٤

ثبت المراجع العربية .... ٢٠٥ - ٢٠٩

ثبت المراجع الأجنبية .... ٢١١ - ٢١٤